

# الجهاد

جمال البنا

## مُتَكَلِّمًا

كان الجهاد كبركان خامد لم يتحرك لعدة قرون حتى اعتقد الناس أنه فقد تفاعلاته الداخلية فعاشوا فى سفحه آمنين<sup>(١)</sup>.

وفى أربعينات القرن الماضى كتب الإمام الشهيد حسن البنا رسالة الجهاد التى أعاد بها إلى الإسلام قسمته الجهادية. وأثبت أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة - ولكنه أدخر دوره لمقاومة الاستعمار ثم وضع النقط على الحروف، عندما كوّن "المتطوعين" الذين سافروا إلى فلسطين وقاموا بأول المجابهات مع الإسرائيليين.

وقام هؤلاء المتطوعون أنفسهم بدورهم فى حرب المعسكرات البريطانية بمنطقة القنال سنة ١٩٥١ وقدموا شهداءهم.

---

(١) لا ينفى هذا أن بعض فئات المسلمين فى الهند تنبهوا إلى أهمية الجهاد كما فى حركة الإمام أحمد السرهندي والذين اتبعوه مثل الشهيد إسماعيل بن الإمام ولي الله الدهلوى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الهجرة.

وكانت رسالة الجهاد قائمة على آيات قرآنية معززة بأحاديث ربما فاقت الآيات ومشفوعة ببعض آراء الفقهاء.

وأدت تطورات عديدة لأن يبدأ فريق من الدعاة، من حيث أنتهى إليه الإمام البنا وأن لا يقنعوا بجعل الجهاد فريضة، ولكنهم جعلوه "الفريضة" ومدوا فى اختصاصه - وهذا هو التطور الجديد - إلى أن يكون أداة لنشر الإسلام وإنقاذ الدول الأوربية من "جاهلية القرن العشرين" وعبادة الأفراد إلى عبادة الله الواحد القهار.

وأدى بهم هذا الاجتهاد السقيم لأن "يجاهدوا" الدولة التى فى نظرهم لا تحكم بما أنزل الله. ومن هنا فإنها أولى وأحق وأقرب من جهاد النظم الأخرى البعيدة.

وانزلقوا مرة أخرى بهذا الجهاد المزعوم إلى محاولة اغتيال المسؤولين بما فيهم رئيس الدولة وقتل أقباط أو جنود وضباط وسرقة محال الصاغة حتى مائل أعمال العصابات.

ونتجت عن ذلك نتائج مأساوية عكرت صفو الأمة، وأنشأت عداوة جديدة بين الدولة والتيارات الإسلامية وأدت إلى سجن وقتل مجموعة من الشباب الذين قاموا بهذه الأعمال وهرب بعضهم إلى الخارج. بينما قتل أبرياء وسياح وتلوثت سمعة البلاد.

وهكذا أخذ الجهاد شكلاً آخر غير ما يصوره الإسلام بل يمكن غير ما تصوره أصحابه أنفسهم الذين أودت بهم انزلاقاتهم - انزلاقاً إثر انزلاق إلى هذه النتائج المأساوية.

\* \* \*

والرسالة التي بين يدي القارئ تختلف عن كافة الكتابات والتصورات عن الجهاد.. وهي ترى أن الجهاد كان في الماضي والحاضر من أكبر الموضوعات التي أسئ فهمها، وأن هذا أفسح المجال في العصر الحديث لأن يُظلم من نقدة الشريعة ومن سدنة الشريعة، وأن يُظلم في الداخل ويظلم في الخارج وأساء تناوله والتعامل معه المستشرقون والجماعات الإسلامية. وأن استهدف الأولون الكيد للإسلام واستهدف الآخرون الانتصار للإسلام.

وجاء هذا الخطأ في الفهم بالدرجة الأولى نتيجة للخلط بين "الجهاد" و "القتال" واعتبارهما موضوعاً واحداً، بل وتغليب القتال على الجهاد ومعالجة الجهاد باعتباره قتالاً..

وهذا خطأ جسيم. فالجهاد مصطلح من أصل واشتقاق لغوى يدل على مضمون معين ويكون له بالتالي الوسائل والأهداف التي يدل عليها أو يؤدي إليها مضمونه. والقتال مصطلح من أصل واشتقاق لغوى يدل على مضمون معين

يختلف عن الأصل اللغوي لكلمة جهاد، وكذلك له وسائل  
وغايات مختلفة.

**وقد وجد الجهاد دون قتال. كما وجد مع القتال وكان لكل واحد منهما أسلوبه وغايته المختلفة - وفيما نرى فإن الجهاد - بالصورة التي سنعرضها - يكون هو الأصل الدائم أما القتال فطارئ يلزم اللوازم به عندما تتطلب الضرورات ذلك.**

ومن الناحية التاريخية والواقعية، فقد ظل الرسول وصحابته يجاهدون في مكة طوال ثلاث عشرة سنة ويستخدمون وسائل الجهاد التي سنعرضها فيما سيلي، والتي تضمنت "الحكمة والموعظة الحسنة والصبر والثبات، والهجرة إلى الحبشة الخ... وكانت الثمرة العظمى لهذا الجهاد فتح المدينة الذي تم بالقرآن. كما قالت عائشة "فتحت المدينة بالقرآن" فقد فتحها القارئ مصعب بن عمير بفضل قراءته القرآن. وعلى أساس هذا الفتح الذي لم يحدث بسيف أو سنان أو حرب أو قتال، جاءت كل الفتح، بما فيها مكة التي اعتبرت تكليلاً لمرحلة القتال التي بدأت منذ الهجرة.

لدينا إذن، أسلوبان استخدماً لرفع الإسلام ونشره وترسيخ دعائمه هما الجهاد والقتال وتطلبت طبائع الأمور والأسس العامة لظهور الدعوات. أن يظهر هذان الأسلوبان كل في المرحلة التي ظهر فيها، فظهر الجهاد أولاً. واستغرق

المرحلة الأولى من تاريخ الدعوة النبوية وتم فيها ترسيخ العقيدة والإيمان بقيمتها وكان اضطهاد المشركين للمؤمنين نعمة في شكل نقمة لأنه ميز المؤمنين وعلمهم الصمود وأذهب من نفوسهم نوازع السلبية والاستخاء. باختصار كان مدرسة تربي الدعاة وتنشئ المؤمنين.

وعندما هاجر المسلمون إلى المدينة، وأصبحوا في وضع يمكنهم من الانتصاف ويعطيهم الأداة التي يحمون بها العقيدة. بدأ القتال وكان في حقيقته دفاعاً عن النفس ودفاعاً عن العقيدة. وهذا هو سر كلمة "لكي لا تكون فتنة" التي تكررت في آيات القتال.

واستعراض المرحلتين يوضح أن مرحلة الجهاد هي المرحلة الدائمة والمستمرة وأن المرحلة الثانية - القتال - ليست إلا مرحلة تكميلية لتأمين حرية العقيدة ولصد الهجوم على المؤمنين. فإذا انتفى هذان، فلا يكون هناك حاجة لقتال في حين يكون هناك حاجة دائمة ومستمرة إلى جهاد، كما أن هذا لا ينفى أن يكون المجتمع مستعداً للقتال عندما تتطلب الظروف. وانتفاء القتال لا يعنى الدخول في مرحلة "الاسترخاء" ولكنه في الحقيقة انتقال من جهاد إلى جهاد. من جهاد أصغر إلى جهاد أكبر.

نعم، قام المسلمون بالفتوحات الكبيرة بعد أن تحقق لهم الأمن ولم يعد هناك حاجة لصد هجوم أو دفع فتنة، وارتوى

أن هذه الفتوحات كانت العامل الأكبر فى نشر الإسلام، ولكن هذا فصل من التاريخ الإسلامى وليس من المضمون الإسلامى للعقيدة أو الشريعة. وعندما يوزن بموازين التاريخ فستضح المزايا التى تميزه، كما سيظهر القصور الذى لحقه..

\* \* \*

لنعد مرة أخرى إلى اللبس الذى وقع فيه نقدة الشريعة وسدنتها ما بين الجهاد والقتال فكيف حدث هذا اللبس وما الدواعى إليه.

١. إن السبب الأكبر هو أن الذين بحثوا فى هذا الموضوع "اقتنصوا" آية أو عدداً من الآيات، عزلوها عن سياقها، وجردها من ملابساتها. وحكموا بها. ومثل هذا الموضوع الخطير لا يمكن أن يعالج بالنظر إلى بضع آيات، لأن دراسة موضوع ما فى القرآن لا يستوفى إلا بدراسة كل ما جاء فى القرآن عنه، لأنه يتحدث عنه فى سورة بما لا يتحدث عنه فى سورة أخرى ومن ثم فمن الضروري استحضار واستصحاب كل الآيات التى جاءت عن القتال أو الجهاد والخروج بالحكم الذى تؤدى إليه مقارنة الآيات بعضها ببعض.

٢. كذلك من المحتمل أنهم أخذوا كلمتى "الجهاد" و"القتال" كمترادفتين يعطيان معنى واحداً أو متقارباً، ولم يشغلوها

أنفسهم بدلالة التفرقة اللغوية. فاعتبروا أن التضحية بالنفس هي أعلى مراحل الجهاد، كالشاعر الذى رأى أن "الجود بالنفس أقصى غاية الجود".

٣. كذلك قد يكون لهم عذر فى أن القتال فى الإسلام يختلف عن القتال للنار، أو الغنيمة، أو العصبية أو غير ذلك من مآرب دنيوية، وكلمة الجهاد هي التى تضى عليه المضمون الإسلامى.

٤. ويجب الإشارة إلى أن سوء الفهم الذى لحق بالجهاد والقتال لا يقف عند اعتبار الجهاد قتالاً، ولكنه يشمل أيضاً مفهوم هذا القتال بما يجاوز الغرض منه وهو صد الهجوم ودرأ الفتنة إلى نشر العقيدة ومحاولة "أسلمه العالم" وإنقاذه من الجاهلية الحديثة وتعريفه بالحاكمية الإلهية. وهو تطور خطر يفتح باباً للمساس بحرية العقيدة لإطراف أخرى، ويلقى بنا فى الأبعاد السحيقة لما يصل إليه التطرف، والأمواج المتلاطمة التى تكتنفه.

٥. كذلك مما يجعل هذا اللبس مفهوماً أن كثيراً من الأحاديث النبوية جاءت بطريقة تحتمله، وأنها أعلنت كفة القتال فى كثير من الحالات ومعلوم بالطبع أن الاستناد على السنة عادة ما يكون أكثر من الاستناد على القرآن لوضوح الأحاديث وتفصيلها وأنها عادة تكون استجابة لمطالب أنية.

٦. على أن أهم من هذا كله أن الفقهاء على اختلافهم اعتبروا الجهاد قتالاً، وأصدروا أحكامهم عليه باعتباره قتالاً. وسيجد القارئ نموذجاً من أقوالهم في الفصل السادس. ولا جدال أن هذا قد عمق وأصل معنى الجهاد كقتال.

ونحن لا نقول إن الإسلام لا يعترف بالقتال ولا يلوذ به. فمن المقطوع به أنه تقبله والآيات والأحاديث صريحة وجازمة في ذلك، فضلاً عن الوقائع العملية وغزوات الرسول الخ... ولكننا نقول إن القتال ليس هو الدأب العادي، فكما قال شوقي.

**وليس الحرب مركب كل يوم ولا الدم كل آونة حلالاً**

فالإسلام يتقبل القتال، بل يوجبه دفاعاً عن النفس وصدأً للفتنة وقد ظهرت الأهمية الحاسمة لذلك في الساعات التاريخية والمصيرية منذ أن بدأ الإسلام وأراد المشركون أجهاضه فردوا بالقتال الذي ظفر لهم بالانتصار كما ظهرت أهمية الجهاد والقتال سنوات مقاومة الاستعمار في العصر الحديث. فقد كان الجمهور الذي تصدى لهذه القوى هو الجمهور الإسلامي الذي كان يحارب تحت لواء الجهاد. وكانت عقيدة الجهاد التي تمكنت من الجماهير ووصلت إلى أعماق نفسها هي القوة التي جعلتها تصمد أمام بنادق ومدافع الجيوش الاستعمارية، وحالت دون أن يتطرق إليها الضعف حتى عندما تنهزم في معركة فإنها كانت تستأنف في معركة

أخرى حدث هذا فى كل الدول الإسلامية التى تعرضت للاستعمار وأرادت التحرر منه. فتحت لواء السنوسية وعمر المختار حاربت ليبيا وتحت لواء عبد القادر الجزائرى حاربت الجزائر، وتحت لواء عبد الكريم الخطابى حاربت المغرب وتحت لواء المهدي حاربت السودان، وتحت قيادة شيوخ الأزهر ثارت القاهرة على نابليون ولكن هذا كله، من بداية القتال فى عهد الرسول حتى مقاومة الاستعمار كان دفاعاً عن النفس والعقيدة، ولم يكن هجوماً على الآخرين أو محاولة لضم أرضهم ومن المفارقة أن نقبل الحرب دفاعاً عن أنفسنا وعقيدتنا ثم نقبل الحرب هجوماً على نفوس الآخرين وعقيدتهم، ونصوص القرآن الكريم واضحة فى هذا فكل ما يمت إلى العقيدة، فإن الإكراه مستبعد منه. وعلى هذا الأساس تقبل أو ترفض الفتوح الإسلامية، ويكون الأساس الذى أوجبها هو العدالة والقضاء على النظم الطبقية التى استعبدت الجماهير وفرضت عليهم الفاقة والجهالة، وليس التبشير بالإسلام.

وظهرت الحاجة إلى روح الجهاد عندما استحوذ الإسرائيليون بدعم من الانتداب البريطانى على فلسطين وعندما انهزمت الجيوش الرسمية العربية فى المعركة لأن كبار قياداتها كانوا من العملاء. برزت قوة متطوعى الإخوان المسلمين الذين حازوا وحدهم - تقريباً - الانتصار على اليهود

فى معارك ١٩٤٨ وكان شعارهم "الموت فى سبيل الله أسمى  
أمانينا" وآمنوا بما آمن به المسلمون الأول من أنهم سيكسبون  
إحدى الحسينيين النصر أو الشهادة

وبرزت مرة ثالثة الحاجة إلى الروح الجهادية بعد أن  
برزت فى معارك الاستقلال فى مستهل القرن. وفى معارك  
فلسطين سنة ١٩٤٨ أخيراً فى عام ٢٠٠٢ عندما أعوز  
الفلسطينيين الأسلحة الحديثة من دبابات وصواريخ وطائرات  
ليقابلوا بها جحافل السفاح شارون. إذ وجدوا فى العمليات  
الاستشهادية الحل الوحيد الذى يوقع الذعر فى الجيش  
الإسرائيلى وفى المستوطنين القساة المتوحشين. كانت هذه  
العمليات هى الرد الوحيد فى أيدى الفلسطينيين ووصلت قوة  
الرغبة فى الاستشهاد درجة فاقت ما وصلت إليه عند  
الفلاحين المصريين الذين تطوعوا فى صفوف الإخوان وقبل  
الواحد منهم أن يبيع الجاموسة، وهى رأس ماله - ليشتري  
بندقية.. إن هذه الروح وأقوى منها تجلت فى الأمهات  
الفلسطينيات اللاتى قذفن بأبنائهن إلى العمليات الاستشهادية،  
ولم يندبن أو ييكن عندما قتلوا ولكن احتفلوا برضاء الله وأنه  
تقبل تضحيتهن بأفلاذ أكبادهم فى سبيل الوطن. ومن يقرأ  
حديث السيدة والدة الشهيد محمود العابد بجريدة الشرق  
الأوسط يوم الجمعة ٢٨/٦/٢٠٠٢ يحس بصدق وإخلاص

الابن والأم<sup>(٢)</sup>. وليست هى إلا واحدة من عديد من الأمثلة.

(١) نرى من حق هذا الشهيد باعتباره رمزاً للعديد من الشهداء أن نورد هنا ما جاء فى جريدة الشرق الأوسط على لسان إمه لنحفظ ذكره فى التاريخ وليكون فيه أسوة للأجيال القادمة. "واستطردت: "عدنا فى المساء إلى البيت وسهر محمود معنا أنا وأخوته وإخوانه، وبعد ذلك ذهب للنوم وقبل أن ينام قلت له يا محمود إذا خرجت غذا لعمليتك لا تودعنى خوفاً من أن ترجع على مرة أخرى فقال لى "مثل ما بدك ياما" فنام قرير العين مرتاح البال وفى الصباح جاءه اتصال من الجناح العسكرى لحركة "حماس" أو بالأحرى من يرصد للعملية، وقال إن الجنود مروا الآن من الطريق أسرع أنت مع المقاتلين لكى تلحقوا بهم عند الرجوع فقام محمود فعلاً واستحم وصلى الصبح وخرج، وأنا عرفت أنه خرج لتنفيذ العملية فظل بالى مشغولاً عليه. بعد ذلك جاءنى أبنى الصغير وقال لى بأنه سمع بأن مجموعة من المقاتلين هاجمت جنوداً للاحتلال بالقرب من مستوطنة دوعيت فاستشهد منهم واحد والباقيون لم يستشهدوا وحينها أصابنى القلق ولم أجعل هذا القلق والخوف يظهران على بل كنت أدعو له بأن يكون "مصيبره الجنة. فى الساعة الثانية ليلاً جاءنى رفاقه وقالوا لنا "عظم الله أكرم" محمود استشهد فسألتهم هل استشهد أم أصيب فقالوا لا استشهد فحينها أطلقت زغرودة مدوية أفاق عليها سكان الحارة والجيران جميعهم وحمدت الله على نعمته التى منحها لمحمود".

وأضافت أم محمود "بعد ذلك سألت عن تفاصيل العملية فقالوا لنا أن الشهيد محمود كان فى الصف الأول فى المجموعة وطلب منهم الانسحاب، قانلاً أنا سوف أعطى عليكم فأخذ يلقي بالقنابل ويطلق الرصاص على الجنود حتى انسحب رفاقه جميعاً وهو استشهد وبعدها فى الساعة الثالثة ليلاً بدأت المساجد تكبر وتقول بأن محمود العابد استشهد. فى الصباح جاءوا بمحمود كى ألقى النظرة الأخيرة عليه فودعته ورأيته مثل البدر وكأنه يشع نوراً فقبلته وقالت له هنيئاً لك الشهادة يا محمود.

عندما يتحقق هذا فإن القتال يكون أمراً مستساغاً أو جهاداً نبيلاً. ولكن كيف.. وإلى متى.. إن وسيلة الحروب قد لا تكون أمثل الوسائل لتدمير النظم الحاكمة الجائرة، وإن كانت أسرعها، لأنه يمكن أن تكون لها انعكاسات سيئة، ويمكن لهذه الآثار السيئة أن تكون أسوأ من السرعة والحسم التي هي ميزة القتال، وعلى كل حال، فإذا كان القتال يؤدي هذه الرسالة قديماً، فإنها قد انتفت في العصر الحديث.

والقرآن لا يطلق العنان لهذا الاتجاه. اتجاه القضاء على نظم مختلفة، أو حتى ضالة لأنه يؤمن بالتعددية وبقاء الديانات الأخرى من يهود، ومسيحيين وصابئين الخ... ولأن الله تعالى يعلم أنه يوجد حتى في المجتمع المسلم من لا يؤمن بالإيمان المطلوب. والآيات صريحة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. {١٠٥ المائدة}.. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ﴾. {٧ عبس}.. كما توضح الآيات أن من ضل فإنما يضل على نفسه ومن اهتدى فلنفسه ومعنى هذا أن الهدى والضلال ليس من قضايا النظام العام الذي تتدخل فيه الدول أو المؤسسات، إنما هي قضية فردية لأنها تقوم على الضمير ومن السخف الظن أننا مطالبون بأن ننقذ فرداً من نفسه بالقوة.

المطلوب إذن قبل إصدار الأحكام على القتال أن نحيط إحاطة شاملة بكل ما جاء في القرآن الكريم عن الجهاد

والقتال ليتمكن استخلاص الأحكام فى ضوء هذه الإحاطة الشاملة. مع النظر فى ما جاء بالمرويات الحديثية فى ضوء الملابس الآنية لها وبعد ضبطها بمعايير القرآن.

نقول إذا توفر هذا وذاك فلن يكون هناك إشكال وستتضح حقيقة الجهاد ورافده القتال. ولكن الذى حدث أن عوامل عديدة متكاثفة أبعدت المضامين الجهادية، وأحلت محلها مضامين القتال، وكان ذلك من أكبر أسباب تخلف المجتمع الإسلامى. لأن الجهاد هو روح المجتمع وجماع الأخلاق الإسلامية (كما سيلي) وعندما يفقد، فإن المجتمع يفقد روحه الحقيقية لأن الجهاد ينتظم الواجبات التى يجب على المسلم أن يقوم بها بحيث يكون عضواً بناءً إيجابياً. فإذا فقدها فسد المجتمع من الداخل، وخير مثال لذلك الدولة التركية التى قامت على قتال لا جهاد فيه.. ومن هنا لم تقم بدور حضارى وكان حكمها أسوء صور الحكم.

كما يمكن تقديم مثال آخر هو الدور السلبي الذى قام به التصوف فى المجتمع الإسلامى وتجريده من جهاديته وإحلال مجاهدات أخرى. والتصوف فى جوهره اتجاه سلبي يمثل الفرار من مشاكل المجتمع والعجز عن مجابتهها، ولم يكن ثمة حل سوى البحث عن عالم بديل يصلون فيه ويجولون وقد امتص التصوف الكتلة الجماهيرية للمجتمع الإسلامى و "حيد" جهودها وانحرف بها من معارضة سياسية أو مساهمة

اجتماعية أو إقامة اقتصاد قومي إلى شطحات وموالد  
"وحضرة" والتضرع إلى شيوخ وأولياء وأقطاب وأوتاد  
والتماس شفاعتهم أو "التماهي" في العالم الأسطوري الذي  
أبدعوه وظنوا أن الملوك لو علموا به لحسدوهم عليه!  
مساكين!.

إن الانتقال من الجهاد في الداخل إلى القتال في  
الخارج كان بداية تخلخل المجتمع الإسلامي، كما أن انتشار  
حركة التصوف عقلت المجتمع الجهاد الإسلامي وأحلت  
محله جهاداً مصطنعاً.

وبعد، فإننا نلرجو أن نكون بهذا الكتاب قد جاوزنا  
بالفكر الإسلامي في جانب من أهم جوانبه تلك المستتقات  
التي ركد فيها، وأعدناه إلى منبعه الأصيل المتدفق القرآن  
الكريم..

القاهرة: جمادى الآخرة ١٤٢٣ هـ/أغسطس ٢٠٠٢ م.

## الباب الأول

### الجهاد

### الفصل الأول

### الطبيعة الجهادية للإسلام

لم يكن عبثاً أن اصطنع القرآن الكريم تعبير الجهاد بالذات وخصه بالذكر وجعله طابع الحياة، ذلك لأن كلمة الجهاد تركز في كلمة واحدة "بذل الجهد" وهي لا تقيد هذا البذل الأقصى في مجال دون مجال، وإنما يفترض أن يكون خطة ومنهجاً وأسلوباً وسلوكاً.. وهذا المنهج هو ما يتفق مع الطبيعة الجهادية للإسلام.

#### الحياة مبارزة بين الخير والشر:

ومن أين جاءت هذه الطبيعة؟ لقد جاءت - بالدرجة الأولى - من التصور الرئيسي الذي أفترن بظهور الحياة على هذا الكوكب الأرض. بل بسببه ظهرت الحياة وارتبطت به. وهذا ما يشرحه لنا القرآن الكريم بتفصيل رائع، وإعجاز بالغ في أكثر من سورة، وأكثر من مناسبة. ففي هذه المواضع تحدث القرآن الكريم عن آدم في الجنة يعيش فيها رغداً وكيف حذره الله من أن يستمع لغواية الشيطان، ولكن

آدم فى إحدى لحظات الضعف أنخدع بغواية الشيطان الذى أكد له أن الشجرة التى أمره الله أن لا يقربها هى شجرة الخلد وأنه إن أكل منها فسيرزق الخلود<sup>(٣)</sup>. وأنخدع آدم. وحقت عليه كلمة الله أن يترك الجنة وأن ينزل الأرض ليبدأ أجيال المعاناة.

ولكن الله تعالى فى سابق علمه كان يريد لآدم شيئاً عظيماً هو أن يكون خليفته على الأرض. وقد أهله لهذا بأمر ميزه على بقية الخلق جميعاً هو العلم ومن أجل هذا فلم يكن نزول آدم من الجنة إلى الأرض عقوبة، ولكنه كان قضاء وإرادة من الله تعالى بأعمار هذه الأرض وأن يقوم فيها بكل الأعمال العظيمة التى أهله الله لها فضلاً عن تلك النفثة الإلهية التى نفثها فيه وهو صلصال مهين فانقلب إلى مخلوق كريم يمكن أن يحمل رسالة الله فى الأرض بعد أن زوده الله تعالى بالضمير من ناحية والعلم من ناحية أخرى.

ويقص القرآن هذه القصة التى رمز بها لدور الإنسان على الأرض ومكانته فيها.. وأجرى لكى يقرب المضامين إلى إفهامنا حواراً بينه وبين الملائكة الذين هالهم أن يجعل الله تعالى خليفة له على الأرض هذا الإنسان لكى يفسد فيها

---

(١) لاحظ التفرقة الدقيقة والبعيدة المدى فى اعتبار القرآن الشجرة شجرة خلود وفى اعتبار التوراة لها شجرة المعرفة.

ويسفك الدماء. فرد الله عليهم بأنهم لا يعلمون ما يعلمه  
وسألهم

■ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً  
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ  
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.  
..{٣٠}

■ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ  
أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. {٣١}..

■ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ  
الْحَكِيمُ﴾. {٣٢}

■ ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ  
أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا  
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. {٣٣}..

■ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ  
أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. {٣٤}..

### (البقرة من ٣٠ - ٣٤)

وفى الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى رفض  
إبليس السجود مع الملائكة على أساس أنه أفضل من آدم، فقد  
خلقه الله من نار وخلق آدم من طين.

ورمز القرآن الكريم بالشیطان لقوة الشر، لأن دعواه قامت على الأثرة والأنانية مع الجهل بحكمة الله تعالى وكان جديراً به أن يفهم أنه ما دام الله تعالى أراد سجود الملائكة الذين هم من نور فإن له حكمة لا يفترض ضرورة أن يعرفها. وعندما تقترن الأنانية بالجهالة فإنها تكون أصل كل الشرور.

برفض إبليس السجود لأنه يرى نفسه أفضل من آدم ويجعل من نفسه العدو الأبدى للإنسان. وأراد الله تعالى له أن يمثل هذا الدور الذي أختاره لنفسه بحيث تكون الحياة مبارزة ما بين الإنسان من ناحية والشیطان من ناحية أخرى. وهو ما تفصله الآيات..

▪ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. {١١}..

▪ ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. {١٢}..

▪ ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. {١٣}..

▪ ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. {١٤}..

▪ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾. {١٥}..

▪ ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.  
..{١٦}

▪ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ  
وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. {١٧}..

▪ ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْعُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. {١٨}..

### (الأعراف من ١١ - ١٨)

▪ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ  
قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾. {٦١}..

▪ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوخَّرَ إِلَيْهِ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَحْتِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾. {٦٢}..

▪ ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً  
مَوْفُورًا﴾. {٦٣}..

▪ ﴿وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ  
بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ  
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾. {٦٤}

▪ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ  
وَكَيْلًا﴾. {٦٥}..

## (الإسراء ٦١ - ٦٥)

أنا لا نجد ديناً أبزر الشر ممثلاً بالشیطان بمثل هذه الصورة من القوة والوضوح، ولا نرى ديناً يعطى الشيطان "كارت بلاننش" ليقوم بالغواية بكل ما يستطيع بل وكاد يكون أمراً له بهذه الغواية ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٤).

ولما طلب الشيطان أن يمهل طوال الحياة الدنيا، أمهله الله..

إن هذا ينم عن الثقة الكبيرة التي يضعها القرآن في الإنسان المزود بالعلم والضمير والمسبح بهداية الأنبياء والكتب المقدسة التي تضع للإنسان معالم الطريق وسبل الهداية.

---

(١) لقد ثار التساؤل عن مصير الشيطان في اليوم الآخر، فهو في فتنته للناس وإشاعته المنكرات إنما كان يعمل برخصة من الله، وإن كان بالطبع قد أخطأ خطأ فاحشاً عندما رفض إطاعة الأمر بالسجود، ولكنه ما كان يمكن أن يعصى الله خارقاً إطار القدرة الإلهية. ومع أن الحديث عن هذا هو مما يخرج عن إطار الموضوع، وما ننصح دائماً بتجنبه باعتباره يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأنه من الغيب الذي لا يكون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القرآن، ولكن لعل الله تعالى أعطانا إشارة عندما خلقه من نار، وعندما ما يقذف به في النهاية في النار ليذوب وينتهي.. من النار بدأ، وإلى النار يعود..

هكذا يتهيأ مسرح الحياة ليكون جهاداً كأشد ما يكون  
الجهاد.. جهاداً ما بين نار حارقة.. ونور هادئ، جهاداً بين  
غواية ساحرة جاذبة. وبين إيمان راسخ رصين. جهاداً  
يستمر ما استمرت الحياة ويضم مجالاتها وتكون أسلحة  
الغواية فيه المال والغرور والنساء والشهوات والمراكز  
والمناصب والكبرياء وأسلحة الهداية العلم والضمير والخير  
وهداية الأنبياء وتعاليم الكتب المنزلة.

إن هذا التصور يعطى الإسلام طبيعة جهادية تجعل  
المسلم على أهبة دائماً، وأبداً، وإذا كان المسيحي يحمل  
صليبه، والفارس يحمل سيفه ودرعه فإن المسلم يحمل إيمانه  
وعقله، لأنه يعلم أن الشيطان يسرى من الإنسان مسرى الدم  
فتلك طبيعة الإسلام، وهذا هو قدر المسلم..

\* \* \*

## الحياة ابتلاء واختبار:

لا تقتصر الطبيعة الجهادية للإسلام على التصور  
الإسلامي للحياة، وكيف بدأت. وكيف تطلبت الجهاد أبداً. إن  
هناك عنصراً آخر يشير إليه القرآن الكريم يحمل معنى  
ومضمون الجهاد وإن حمل اسماً آخر هو "الابتلاء" وهذا  
العنصر يوجد حتى لو لم يوجد الشيطان ويؤتى منه الإنسان  
من حيث لا يؤتى من الشيطان لأنه لا يكون من الشر دائماً،  
وإنما من الخير أيضاً ولا يكون من الفاقة والمرض

والمنغصات، ولكن يكون من الصحة والثروة والراحة  
والبهنية، وفي ضوء هذا الابتلاء قد تكون النعمة نعمة، كما  
قد تكون النعمة نعمة..

وللبلاء معنى الشدة، ولكن الابتلاء يتحول ليصبح  
اختباراً وليضم إلى الشدة.. الرخاء أيضاً.

من البلاء أن لا يجد الرجل الفقير فى بيته ثلاجة  
صغيرة تتيح له الماء البارد وتحفظ له طعامه من الفساد،  
ولكن من البلاء أيضاً أن تحتشد ثلاجة الرجل الغنى بعشرات  
من الأطعمة والأشربة والمعلبات والمشهيات. إن إغراء  
الوفرة لا يقل أثراً عن مرارة الحرمان.. لأن الأولى قد تؤدى  
إلى التخمّة والبطنة كما أن الثانية تؤدى إلى المجاعة  
والمسغبة وكلاهما سيئ.

ومن البلاء أن يعيش بعض الناس على الكفاف وأن  
يتعرضوا لمآسى الفاقة لأن هذا بالطبع يجعلهم فى صراع مع  
الضرورات والتزام بصنوف من الحرمان، ولكن من البلاء  
أيضاً أن تتضخم الثروات لدى فرد آخر لأن هذا التضخم  
سيجعله راعياً له وسيكون عليه أن يفرغ نفسه لذلك أو أن  
يستخدم فريقاً له، وإذا علمنا أن المال فى الإسلام هو أصلاً  
مال الله وأن الإنسان مستخلف فيه، ومؤتمن عليه علمنا ثقل  
هذه الأمانة وأنه ينذر من يقوم بحققها سواء بدفع الزكاة عنها  
أو حسن التصرف فيها وهذا أيضاً من الابتلاء.

والآيات القرآنية العديدة هي خير ما يوضح لنا مدلول الابتلاء وموضوعه والغاية منه.

▪ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. {١٥٥} البقرة {

▪ ﴿تَبْلُوتُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ {١٨٦} آل عمران {..

▪ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {١٦٥} الأنعام {..

▪ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. {١٦٨} الأعراف {..

▪ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ {٣١} محمد {..

▪ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. {٣٥} الأنبياء {..

■ إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ {الكهف}..

■ ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخِنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَمَا مَنَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. {٤} محمد}..

■ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ {٢} الملك}..

■ ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي﴾. {١٦} الفجر}..

■ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. {٢} الإنسان}..

هذا الذكر المتكرر لمعنى الابتلاء كاختبار يكون على المسلم أن يجتازه وأن ينتصر على ما قد يحيق به من متاعب، ومصاعب وكوارث، ومصائب.. وكذلك أن يصمد أمام إغراء المال. والقوة والصحة ومختلف النعم التي ينعم الله بها على الإنسان فيطغى البعض، ويشكر البعض الآخر. وبقدر ما تفتن الفاقة الفقير فقد تفتن الثروة الغنى بحيث

يلتقيان فى الافتتان وعدم الصمود... الحياة هنا اختيار مبدئى. ووقوف أمام الخير والشر، النعم والنقم موقفاً صامداً يغلب الضعف البشرى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. {٢٣ المعارج}..

ويصل هذا الابتلاء إلى غايته فى التصوير الرمزى البليغ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. {٧٢ الأحزاب}.. فماذا نفهم من هذه المسئولية الثقيلة التى أشفقت الجبال والسماوات والأرض عن حملها إن لم تكن هى الحرية التى منحها الإنسان والتى هى فى أصل الاستخلاف والابتلاء ومنعت منها الأجرام السماوية التى تسير بمقتضى القوانين التى وضعها الله ولا تملك عنها انحرافاً أو تحلاً.

إن التصور الإسلامى للحياة الإنسانية باعتبارها كفاحاً ضد غواية الشيطان وصبراً وثباتاً عند الابتلاء والاختبار يعطيان الفعالية الإنسانية تكثيفاً قد لا نجده فى أى عمل درامى أو فنى ولا يمكن أن يتطرق إلى نفس المسلم فكرة عن عبثية الحياة أو ما ساور الشاعر:

**حياة ثم موت ثم بعث      حديث خرافه يا أم عمرو..**

أو ما استقر في أعماق المشركين إن هي إلا حياتنا الدنيا. نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر..

فهنا نظام محكم كأشد ما يكون الأحكام، مرتب كآتم ما يكون الترتيب، شامل كأوسع ما يكون الشمول، له بداية يبدأ منها وله غاية ينتهي إليها ويتطلب الإيمان والالتزام والصمود، يحف به الوعد والوعيد. ويستتبع حساباً بمقال ذرة... ثم إلى جنة.. أو جحيم. ويوفر الحرية التي تتضمن بالطبع حرية الاختيار ما بين الخير والشر ويضفي على هذا كله طابعاً ربانياً وغلالة من الغائية الإلهية الخالقة القاضية.

عندما يؤمن الإنسان بهذا التصور وما فيه من إحكام وإبداع وشمول تتملكه حالة نفسية تجعله يستشعر ما استشعره الأنبياء. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. {١٣٦ الأنعام}.. وهو أيضا الذي يمكن أن يفهم في ضوء الآية - التي أسئء فهمها - ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ بحيث تكون الحياة نذراً وتطبيقاً لما خلق الله الإنسان من أجله من أداء الطيبات واجتتاب السيئات واتباع هداية الأنبياء واجتتاب غواية الشياطين فهذا هو محض عبادة الله...

ومن الناحية المقابلة فهل يتصور في مثل هذا المجتمع أن يحس الإنسان بالاكنتاب أو الاغتراب أو العبثية أو الملل

القائل؟؟ أو يشغله التساؤل من أين جاء وأين انتهى؟ هذا لا يمكن أن يرد على ذهن إنسان يؤمن الحياة كما يقدمها التصور الإسلامى بداية بالخلق ونهاية بالبعث، وفيما بين هذين كفاحاً واختباراً ومسارعة فى الخيرات واستباقاً إلى الفضائل والإقبال على الحسنات.. والعزوف عن السيئات.

وقد صور الرسول ﷺ موقف المؤمن "عجباً لأمر المؤمن" إن أمره كله له العجب وليس ذلك لأحد إلا المؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً، وأن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له (مسلم). وكذلك "إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط". متفق عليه. والحقيقة أن العجب لا يقف عن هذا، لأنه فى الوقت الذى يجعل الإيمان المؤمن راضياً لا تتغصه المتاعب، ولا يأس على ما فاتته، ولا يفرح لما يؤتاه. يكون عليه أن يدخل فى الكفاح مع قوى الشر وإغواء الشيطان، وزهو السلطة والثروة، وقهر الفاقة والمرض أى أن يجمع بين أهبة المحارب، وسلام المؤمن..

قد تضيق نفس الإنسان الأوربى المتحرر بهذا العالم الملتزم، ولكن ما هو مصيره؟ فى بعض الحالات ينسحق تحت ضغط توترات الحياة الحديثة. أو الاكتئاب أو الإغواء أو يعب من اللذات حتى تفقد لذتها.. فيجد نفسه حيث بدأ. أو يحاول أن يتابع عجلة الاستهلاك فلا يستطيع، لأن كل يوم

يوجد حاجة جديدة يجب إشباعها فيجرب خياله لاهنأ أو ينتخ ويستعلب بما وضعه العقل الإنسانى فى يده من وسائل القوة التى دفعت به إلى أعماق البحار ورفعته إلى أجواز السماء فتكون النتيجة الغرور والاستكبار والزهو والازدهاء.. والانذفاع الذى يصل إلى حافة الانتحار النووى.

أن الانتحار فى المجتمع الأوروبى قد يكون بأساً واكتئاباً كما قد يكون استعلاء على الحياة.. واستباقاً للموت، وجعله - فيما يظنون - إرادة وليس قضاءً.

وهذه كلها خيارات شاذة.. مهلكة.. تنتفى منها الغائية والاعتدال ولا تجعل من الحياة ساحة لجهاد، تنتهى بنصرة الحق.. ولكن ساحة الصراع أهوج ينهى نفسه بنفسه.

بعد هذا التصوير عن "الطبيعة الجهادية للإسلام نستطيع أن ننقل الآن لتوضيح مفردات، ووسائل الجهاد، وما يمكن أن نسميه "دستور الجهاد الإسلامى".

## الفصل الثالث

### دستور الجهاد الإسلامى

#### اليومى والدائم

رأينا أن الإسلام له طبيعة جهادية، وهذه الطبيعة تقتضى من المسلم سلوكاً خاصاً، والتزاماً بالقيم الجهادية فى الإسلام إيجابية وسلبية. وهذا السلوك هو ما يتضمنه بالدرجة الأولى والأساسية توجيهات وموجبات القرآن الكريم، كما تجلى فى سلوك وسياسات وتصرفات الرسول، وسنعرض هنا لأبرز هذه التوجيهات..

#### ١ - هدى القرآن:

" وجاهدوهم به... "

وقفت طويلاً أمام هذه الآية: ﴿وَجَاهِدُوهُمْ بِهٖ جِهَادًا كَبِيرًا﴾. {٥٢ الفرقان}..

الضمير هنا يعود إلى القرآن الكريم.

كيف يمكن للرسول ﷺ أن يجاهد بالقرآن.

وكيف يمكن للمسلمين أن يجاهدوا به.

وكنت كلما أفكر كلما كانت تتفتح أمام بصيرتى أفاق

ومجالات ووسائل وطرق.

من الممكن أن يتلو الرسول القرآن على مسامع  
المشركين وقد أمره الله بذلك ﴿وَأَنْ أتلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى  
فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾. {٩٢  
النمل}..

وما كان الله تعالى أن يقول هذا لولا أنه يعلم أن في  
القرآن نفسه - في معانيه وألفاظه وأسلوبه ونظمه ما يؤثر  
على نفس المشرك بحيث يزلزل شركه ويجعله "يعود بوجه  
غير الذى دخل به" ..

وقد حدث هذا...

ولكن هناك ما هو أكثر...

هناك أن يتوجه الرسول، والدعاة إلى غير المسلمين،  
بالمعان والتوجيهات التى أمر بها القرآن الكريم وهو ما  
يدخل فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة..

ولكنى كنت أفكر فى استخدام القرآن كأداة للجهاد، كما  
هو منطوق الآية، وليس للهداية.

وهذا ما توصلت إليه أخيراً...

إن قراءة القرآن، والاستماع إليه بصفة منتظمة، أو  
شبه منتظمة، تبنى شخصية المسلم وتزوده بروح الكفاح بل  
وتعده لهذا الكفاح.

وإذا راجعنا القرآن لوجدنا أن ثلاثين سورة على الأقل من السور الطوال التي تحمل في ترتيب الأرقام من ١٠ إلى ٣٠ وتبدأ بسورة يونس، وتنتهي بسورة السجدة التي تحمل رقم ٣٢ كلها سور مكية لا تتضمن قتالاً ولكن جهاداً وكل سورة منها تحرك الجبال فما بالك بالإنسان وتحمل من القوى والمحفزات ما يدفع للجهاد.. وتتضمن من القوارع والتتديد ما يؤدي إلى الكف عن كل شر، أو بخل أو استخذاء.

وطالماً كنت أسائل نفسي كيف توصل محمد إلى تربية جيل الصحابة وحولهم من عامة عرب قريش إلى رسل حضارة فيهم أفضل ما يشترط في بناء الإمبراطورية من صدق وإخلاص وشجاعة. وقد انتهت إلى أن هنا يعود بالدرجة الأولى إلى الاستماع المنتظم والمستمر للرسول وهو يتلو في صحراء مكة النائية السور الطوال في صلواته، ولا سيما الصلوات المشهودة، صلاة الفجر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء. التي كانت جمهرة الصحابة رجالاً ونساءً يحضرونها، وأنصتوا أن الملائكة أيضاً كانت تحضرها وتضع أجنحتها لها.. إن صوت الرسول. ونظم القرآن ومعاني الكلمات كانت تنزل من شفתי الرسول إلى أعماق القلوب لتقر بها وتتغرس فيها ما تتطوى عليه من أمر ونهى ووعد ووعيد دفع للخير ومقاومة للشر وصبر على المشاق وصدق في القول ووفاء بالعهد وعدل في التعامل.. كل هذه

القيم يسوقها القرآن فى نسق فريد وفى نظم له ما للموسيقى من أثر فى النفس.

أن كل أساسيات الإسلام ودعائمه وقيمه تكون على أفضلها فى القرآن الكريم، ولا يقتصر عنصر الامتياز على حسن العرض وسلامة التصوير، ولكن يضاف إليه النظم الموسيقى الذى يعطى المعانى قوة وعذوبة ويدفع بها إلى القلب وهذه هى أهمية التلاوة، والأمر الإلهى "وأن أتلو القرآن..." أو الاستماع إليه هى طريقة تعلمه.

نعلم أن الفنون والآداب تقوم فى العصر الحديث بدور بارز فى التنقيف وصل الشخضية وتنمية الوجدان وأن الاستماع إلى الموسيقى فى نواديها أو حضور السيمفونيات ذات الشهرة العالمية وكذلك حضور حفلات الأوبرا والبالية.. كلها جزء لا يتجزأ من الثقافة الاجتماعية للإنسان الأوربي. وهم يحضرون فى أبهى ملابسهم - رجالاً ونساءً - ويجلسون يستمعون فى صمت وإصغاء فلا ترتفع نأمة حتى ينتهى المشهد ليكون من حقهم التصفيق وهم يرون أن هذا الجانب من أهم جوانب سمات الشخص المتمدن والمهذب، وأذكر ما رواه أستاذ فى الجامعات الأمريكية - من أصل عربى. من أن إحدى السيدات ألحت فى زيارته بمنزله، ورغم غرابة هذا الطلب. فقد رحب الرجل ودعاها، فلم تكذب تدخل وتشاهد بيانو كبير فى الصالة حتى سألته عنه وعندما

قال لها إنه خاص به وأنه يعزف عليه أحياناً حتى ولت على أعقابها وفهم الأستاذ بعد ذلك أن رؤية هذا البيانو دلها على أنه أستاذ مثقف متمدن كالأوربيين، وأنه ليس شرقياً بدائياً. كما قد يتبادر إلى ذهن بعضهم !.

صلاة الجماعة، والاستماع إلى السور الطوال، خاصة إذا كان في مسجد مفتوح كمسجد الرسول في المدينة حيث تتبدى الشمس الغاربة.. أو السماء الصافية. وفي جو الاستغراق الذي تفرضه الصلاة بحيث لا يرتفع صوت خلال القراءة تنتقل الآيات إلى النفس وتفعل فعل السحر فيها وعندما يتكرر هذا يصبح طبيعة ثانية.

في العصر الحديث كانت إمامة الإمام الشهيد حسن البنا لشباب الإخوان في صلوات "الكتيبة" في المغرب والعشاء، أو الفجر من أقوى الأساليب في التكوين الروحي والنفسي لشباب الإخوان. وقد قدر لي أن أشهد إحداها، كما أنى أذكر حتى الآن صلاة الإخوان في معتقل الطور وكان يؤمنا أحد العمال، وكان له صوت شجي مؤثر ينفذ إلى القلوب ولا أزال أتذكر صوته - بعد خمسين سنة - وهو يتلو دعاء إبراهيم في سورة إبراهيم كأنما يصدر من قلبه وهو يقف عند آخر الآية ٤٠ من السورة وهي كلمة "دعاء" رب أجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي وتقبل دعاء..

وكثيراً ما تمتلك الحيرة والعجز طالبي الإصلاح..  
أنى لهم أن يصلحوا النفوس ويعالجوا القلوب.. وأنا أدلهم  
على طريقة سهلة وسائغة، تلك هي المشاركة في صلاة  
المغرب والعشاء (وحبذا لو كان يوم خميس) وراء إمام يتقن  
القراءة على غير عادة القراء. فهو يقرأ قراءة متأنية،  
واضحة، يؤدي فيها للحروف حقها كما في علم التجويد ولكن  
دون تقعر - وأن لا يكون ذلك في مسجد مغلق ولكن في  
صحراء مكشوفة يقرأ سوراً من السور الطوال (الأعراف أو  
الإسراء أو التوبة الخ...) أوكد أن وقع الكلمات سيكون  
عليهم أعظم أثراً من وقع الموسيقى على الأوربيين، وأنهم  
سيتشربوها، وفي النهاية يمكن أن توجد فيهم السليقة  
القرآنية...

إننا نؤكد هنا ضرورة الاختصار على التلاوة  
بالصورة التي حددناها، بحيث لا يكون هناك أى شرح أو  
تفسير.

نعود إلى الغرض من إيراد كل هذا.. أن الرسول  
جاهد المشركين بالقرآن بطريقتين. فمن ناحية فإنه عندما  
كان يتلوه عليهم، أو يدعوهم بما فيه من الحكمة والموعظة  
الحسنة فإنه كان يزلزل شركهم ويعددهم للإيمان ومن ناحية  
أخرى فإن صلواته بالمسلمين خاصة في مكة، وقراءاته  
بالسور المكية الطوال كان من أكبر العوامل التي غرست

هدى القرآن فى نفوس الصحابة بحيث خلقهم خلقاً جديداً، وكيف لا يخلقهم خلقاً جديداً وهو يقرأ عليهم ﴿وَلَوْ أَنْ قُرْآنًا سُبِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَبَيِّنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. {٣١ الرعد}.

أى واحد يستمع حاضر القلب إلى تنديد القرآن بالبخل واكتناز الأموال، وأمره بالكرم والإنفاق ثم يكون بخيلاً؟ وأى واحد يسمع تقرُّع القرآن للذين لا يتفكرون ولا يتدبرون ويقولون نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ثم يكون مقلداً دون فكر أو تدبير؟ أى واحد يسمع الثناء الجميل على القلب السليم. والعمل الخير، والوفاء بالعهود والصدق فى القول والإخلاص فى العمل ثم يكون ناكثاً للعهد، فاعلاً للشر، تاركاً للخير.

كيف يمكن أن يدعى أنه مسلم، ويحلف بالقرآن وهو يخالف القرآن ليل نهار !.

إن السماع المنتظم لآيات الذكر الحكيم يخلق الإنسان خلقاً جديداً يذهب بالأباطيل والشهوات والعادات الموروثة ويهدى إلى القيم العظمى من عدل، وحرية، وإخلاص وخير...

وقد لا يتم هذا فوراً، أو بالصورة الكاملة لأن العادة طبيعية ثانية، والتقاليد تملك النفوس وليس من السهل التحرر منها، ولكنه مع المواظبة والاستمرار يحدث .

فإذا كان هذا لا يحدث اليوم، فذلك لأن المسلمين لا يقرأون القرآن. وإنما يقرأون التفاسير ولا يستمعون إلى القرآن ولكن يستمعون إلى تلحين القرآن. أو يكرون كراً دون أى وعى أو فكر كلمات الذكر الحكيم تشييطاً لعضلات اللسان! وليس فى هذا أو ذاك ما يفيد.. ثم هم لا يمنحون القرآن قلوبهم ولكن آذانهم أو حتى بعض آذانهم لأنهم يستمعون وهم مشغولون باهتمامات أخرى، ومثل هذا بالطبع لا يأتى نتيجة وإنما تأتى النتيجة عند السماع المنتظم للسور الطوال فى الصلوات لأنها المناسبة التى تهيئ القلب. وهذه هى الحكمة فى الصلوات الطويلة التى كان الرسول يؤديها. أنها كانت تعليماً للمسلمين وبناء لنفوسهم، فلا بد من تخصيص الوقت اللازم لذلك لا باعتبارها أداء عبادة ولكن باعتباره جهاداً وبناءً للنفس لأن العبادة يمكن أن تؤدى بقصر السور، والله تعالى غنى عن العالمين. وما يراد من هذه الصلوات هو أن تتطبع الآيات على قلب المسلم فتخلقه خلقاً جديداً...

ومن الخير أيضاً أن يفكر الخطباء فى صلاة الجمعة وغيرها فى استخدام القرآن بدلاً من كلامهم الغث. وقد كان

الرسول ﷺ يخطب بالقرآن. وتحدثت صحابية أنها ما حفظت سورة "ق" إلا من كثرة ترديد الرسول لها فى خطبه.

## ٢ - الصبر والثبات

### فى مواجهة الاضطهاد.

ما أن يؤمن المؤمن حتى يتعرض لصنوف من الاضطهاد، هذه سنة الله فى المجتمع الإنسانى. وقد تعرض لها المؤمنون الأول وتحدث إليهم الرسول عن الرجل الذى كان يشق رأسه بالمنشار وذكر القرآن الكريم الأخدود الملتهب الذى يلقى فيه بالذين يرفضون كلمة الكفر ويتمسكون بكلمة الإيمان. ونعلم من التاريخ الويلات والفظائع التى تعرض لها المسيحيون الأول على يد أباطرة الرومان.. وكيف كانوا يجعلونهم طعمه للوحوش المفترسة..

وقد تعرض المسلمون الأول لصنوف من الاضطهاد صبها عليهم سادة قریش وأثرياءها حتى راح ضحية لها ياسر أبو عمار وسمية أمه. فكان الرسول يمر عليهم وهم يعذبون فيقول لهم "صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة"

وقد يستغرب البعض هذا الموقف من الرسول أو يتصور أنه قد كان عليه أن يفعل شيئاً ليخفف عنهم العذاب الأليم..

ولعل الرسول كان يتمنى ذلك أيضاً. ولكن ألقى فى روعه أن الصبر، وليس التخفيف، هو السلوك الأمثل فى مواجهة الاضطهاد، لأن القضية ليست قضية حالة فردية، فهناك الملايين من الرجال والنساء أمثال ياسر وسمية سيتعرضون للعذاب فى سبيل مبادئهم ولن يجدوا نبياً يشفع لهم وسيكون عزاءهم الوحيد، ومصدر مقاومتهم وصبرهم هو أنه كان هناك فى صحراء العرب القاحلة من عذب حتى مات من العذاب، بمقربة من نبي الرحمة، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. وليمض ما وضعه من أسس وأصول لظهور الدعوات ونجاحها. رغم ما يوضع فى سبيلها من عقبات وما يتعرض له دعائها من عذاب..

إننا لا نجد من يشفع دائماً، وإن وجد أحياناً، وقد وجد فى حالة ضعفاء - مكة فى شخص أبى بكر الذى استتقذ خمسة أو ستة منهم، ولكن يظل هذا استثناء ولا نجد وسيلة لدفع العذاب.. فالأبواب مغلقة والأسوار منيعة ولا يستطيع الذين فى الداخل شيئاً، كما لا يستطيع الذين فى الخارج شيئاً.. فلا مفر فى النهاية من الصبر وإذا استطاع الظلم أن ينتصر بأن يقضى على البقية الصابرة، فإن هذا لن يكون النهاية بل سيكون البداية على أيدي أبناء وأحفاد هؤلاء القتلى. إن التاريخ ليس معركة واحدة تنقضى فينقضى، ولكنه الحرب السجال الطويلة عبر الأجيال..

وفى ضوء هذه الحقائق نفهم توجيه القرآن الرسول  
والمؤمنين للصبر..

وليس معنى هذا أن يستسلم المعذبون لو أنهم استطاعوا  
حيله، ولا أن يستكين آلهم وذويهم وإخوانهم فى الخارج فلا  
يحركوا ساكنات.. فإن هذا يدخل بالطبع فى باب الجهاد، على  
أن لا ينزلق هذا إلى العنف المضل. ولكن سوابق التاريخ  
توضح لنا أن الأغلب الأعم أن يعجز هؤلاء، وأولئك عن أن  
يعملوا شيئاً. ولا يبقى أمام الجميع حائلاً دون الاستسلام إلا  
الصبر والثبات.. وسيظل الصبر هو الحارس السيقظ لكل  
الدعاة ساعات محنتهم وخلال تعذيبهم. وقد كان هذا هو حال  
الإخوان المسلمين الذين عذبوا فى سجون الطاغية الأثيم عبد  
الناصر وسجون الطاغية المجرم حافظ الأسد عليهما اللعنة  
وسوء الدار..

ولكن لا يدخل فى هذا مقاومة المجتمع، لأن هذه  
المقاومة لا بد وأن تأخذ شكلاً سرياً، ولا بد أن تلوذ بصور من  
العنف أو اللاشرعية مما يسمح بانزلاقات خطيرة، دون أن  
يحقق شيئاً، ولو فكر أعضاء الجماعات الإسلامية فى سياسة  
دعوة الرسول فى الفترة المكية، وكيف أنه لم يقم بأى مقاومة  
يقارع بها المجتمع الجاهلى، لقاء ما ارتكبه من حماقات  
لفهموا حكمة ذلك، ولما انساقوا فى "جهادهم" الضال العقيم

ولما لاذوا بصور من العنف أساءت إليهم وإلى الإسلام،  
وإلى الأمة كلها.

الصبر إذن هو المسلك الأمثل، ومن ثم جاءت  
توجيهات القرآن أمرة به..

▪ ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ  
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. {١٧٧ البقرة}..

▪ ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ  
الْكَافِرِينَ﴾. {٢٥٠ البقرة}..

▪ ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.  
{١٤٦ آل عمران}..

▪ ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. {١٨٦  
آل عمران}..

▪ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا  
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. {٢٠٠ آل عمران}..

▪ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا  
وَأُودُوا حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ  
جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾. {٣٤ الأنعام}.

▪ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. {١٢ إبراهيم}

▪ ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. {٣٥ الحج}..

▪ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾. {٣٥ الأحقاف}

ولا يوجد صبر إلا عندما يوجد الإيمان بالله، لأنه الأقوى من الطغاة، ومن العذاب.. ولأن إليه المآب في النهاية فالمؤمن بالله حقا يصبر لأنه نوع من الجهاد، فإذا قتل أو مات فإنه يظفر بالشهادة وأن عاش يظفر بالبطولة وبقدر إيمانه بالله يكون صبره على العذاب..

### ٣ - الحكمة والموعظة الحسنة

#### في التعريف بالدعوة

ما الذي يجعل دعوة تزدهر، وتنتصر بينما تفشل دعوة أخرى وتتغلق وتتطوى؟ عندما تتساوى العوامل، فإن الدعوة التي يلجأ دعائها إلى الحكمة والموعظة الحسنة هي التي سيكون لها الانتشار والانتصار.

لقد قال القرآن الكريم فأوجز، وأعجز، وبلغ الغاية ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. {١٢٥ النحل}..

فرسم فى هذه الآفة سبيل الدعوة..

### ومرة أخرى:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. {٤٦ العنكبوت}..

وأى سبيل آخر غير الحكمة لا يمكن أن يجدى جدواها أو يشجى شجواها.. أو يبلغ منتهاها.. فالمال مثلاً لا يمكن أن يثمر فى ميدان الدعوات. إن الذين يعطى لهم يأخذونه ويلعنون صاحبه! ويدرون أن مم أحق به من ه.. وهو لا يصنع أخوة أو يحكم رابطة وصدق الله ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٦٣ الأنفال}..

والسلطة لا تجدى فتيلاً فى الدعوات وستأتى بالانتهازيين والطامعين والمنافقين الذين يزيدون الحاكم خبالاً وضلالاً. ولعلمهم يفعلون سراً عكس ما طلب إليهم جهراً...

ولو كان المال أو السلطة يجديان لكان الأنبياء والدعاة من الأثرياء، والحكام. ولكن هذين بالذات هما أبعد الناس من الدعوات..

ليس إلا الحكمة والموعظة الحسنة. بألفاظها ومعانيها، أى السلامة فى عرض فى الموضوع التى تكشف عن

حكيمته، والأسلوب الحسن الذى يكفل قبولها والمحاولة بالحسنى التى تفند الشكوك والشبهات ثم بعد هذا فلا تأسى إذا لم يؤيد البعض، لأن الله تعالى أعلم بهم منك..

وقد كانت ولا تزال - الحكمة والموعظة الحسنة هى أمثل الطرق فى اكتساب الأعضاء للدعوات فإن فرداً واحداً تكسبه الدعوة يمكن أن يكون أمه.. إن أبا بكر وحده كسب للإسلام المجموعة التى قادت الإسلام بعد ذلك. وعندما مر المسيح على صائد سمك. دعاه وجعله صائداً للناس وأرتفع إلى مستوى كبار الحواريين..

ومع انتشار وسائل الدعاية الحديثة، وقوة تأثيرها، فلا تزال العلاقة الشخصية، والكلمة المباشرة من فم إلى فم هى أكثر الطرق فعالية للتوصل إلى العناصر الصالحة. لأن الصلة الشخصية هى أوثق العلاقات وهى تجعل الداعية يختار أفضل العناصر بحكم معرفته، ويستبعد من لا خلاق له، أو من ليس مؤهلاً لحمل الدعوة فيدراً عنها كثيراً من الغناء الذى يحسب عليها لا لها. وهذا العنصر الصالح سيستمع من قلبه لصديقه لأنه يعلم أنه جاد. وسيقوم بدوره فى الدعوة وبهذا تنتقل الدعوة من الداعية لتكسب داعية آخر وهلم جراً..

ولا يمنع هذا بالطبع من أن وسائل الدعوة الأخرى كالنشرات والرسائل والكتب والاجتماعات والندوات الخ...

تستخدم فقد يكون أسلوب الدعوة الفردية وحده مما لا يتسق أو يسير مع السياق.. ولكن هذه الوسائل من اجتماعات ونشرات تأتيها بالكثير من الغناء.. الذى تضيق به الدعوة فيما بعد، ويكون عليها أن تخلص منهم.

وإشارة الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. توجه الدعوة لعدم إحافهم بالدعوة على الذين لا يتقبلونها لهذا السبب أو ذلك. لأن السلامة الموضوعية للدعوة قد لا تكون سبباً للإيمان، فقد يكون هناك من العوامل الذاتية ما يجعل فرداً ما يرفضها لأنها تخالف مصالحه الخاصة أو تؤثر على وضعه الاجتماعى الخ...

وهناك أمر آخر وثيق الصلة بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.. ذلك أن المسلمين مطالبون بتعريف العالم على الإسلام وتعميق هذا بالطبع - ولو ضمنا - دعوة للإيمان به، ولكن هذا ليس جزءاً لا يتجزأ من دعوة التعريف وهى التفسير للنص القرآنى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾. لأن النص وإن كان يوحى الخصوصية بعهد الرسول، فإن العبرة هى بعموم النص وليس بخصوص السبب - كما يقولون.. ويجب أن يتم هذا بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا تطلب تحاوراً فيجب أن يتم طبقاً للأصول التى وضعها القرآن "بالتى هى أحسن" وأن

ينتهى الموضوع عند هذا، لأن الإسلام وإن كان له جانبه الحضارى والقيمي الذى يستحق العرض والدفاع، فإن له جانبه العقيدى الإيمانى الذى يخضع لاعتبارات عديدة ارتأى معها القرآن أن يكتفى بمجرد التبليغ ثم ترك الأمر لله..

#### ٤ - الإتفاق - الإتفاق:

وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..

من يتقصى آيات الجهاد يجد أنها تضم الذين "يجاهدون بأموالهم وأنفسهم" ويلحظ أن القرآن الكريم قدم الأموال على النفوس.

▪ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. {٩٥ النساء}..

▪ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. {٧٢ الأنفال}..

▪ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. {٢٠ التوبة}..

▪ ﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. {٨٨ التوبة}..

▪ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. {١٥ الحجرات}

أن إدخال الأموال في باب الجهاد وتقديمه على النفس أمر قد يثير الدهشة لأن النفس أكرم من المال.

ولكن هذه الدهشة تتبدد إذا تذكرنا أن الجهاد أسلوب في الحياة. يعني بذل الجهد، كل الجهد، في سبيل الخير، كل الخير. في هذا الأسلوب يكون جهاداً بذل المال إعانة لمحتاج، أو مشاركة في تسليح أو تزويداً لمحارب بالعدة، أو مساهمة في بناء مؤسسات للخير أو حتى القيام بنشاط اقتصادي للشعب يبسر الوظائف وينهض بمستوى المعيشة هذا كله في صميم جهاد الحياة اليومية، بل لا نغالي إذا قلنا إن هذا الجانب هو ما يشغل الناس جميعاً، فقضية المال والحرص على تملكه واكتنازه أو استخدامه فيما تهوى الأنفس من شهوات واستمتاع أو الحرص على كسبه بطرق

قد يدخل فيها استغلال العمال وظلم الفلاحين الخ... هذه كلها هي ما يملأ مخيلة، وطموح، معظم الناس وما يؤدي إلى ما يعانیه المجتمع الحديث من مظالم وأزمات وما الفرق بين المسلم المؤمن الذى يبتغى بحياته رضا الله ورضوانه.. وبين اليهودى الجشع أو الرأسمالى الذى لا يعنى إلا بمصالحه ومكاسبه؟ أن حُسن التصرف فى المال هو أحد الوسائل البارزة فى طرق ووسائل الجهاد.. ولأنه يصدر عن الفرد ولأنه يعرض كل يوم، فإن القرآن قدمه على الجهاد بالنفس الذى لا يُطلب إلا لحظات القتال الاستثنائية والتي عادة ما تأخذ شكلاً جماعياً.

وأدلل على الأهمية القصوى التى تجعل الأنفاق جهاداً بالمتلين التاليين:

أولاً: قرن القرآن الكريم الزكاة بالصلاة، فلا يذكر الذين يقيمون الصلاة إلا ويقرنها، "ويؤتون الزكاة" بصورة جعلتنا نصدر إحدى رسالاتنا عن الزكاة تحت أسم "أخت الصلاة المهجورة" وكما هو معلوم فإن رفض القبائل العربية دفع الزكاة كان هو الدافع الرئيسى الذى جعل أبا بكر يحاربهم وجعل المسلمين يعتبرون هذا العمل ردة، ولو حكمنا بهذا المعيار على مسلمى اليوم لأصبح معظمهم فى عداد المرتدين الذين يفرقون بين الصلاة والزكاة فيؤدون الأولى ويغفلون الثانية واستحقوا عجب الشاعر:

**عجبت لمعشر صلوا وصاموا ظواهر خشية وتقى كذابا  
وتلقاهم حيال المال صُماً إذا داعى الزكاة بهم أهاباً**

ولا يتسع المجال للحديث عن عبقرية الزكاة وقد بينا  
عشرة وجوه تفضل بها الزكاة النظم الأخرى التى وضعها  
المجتمع كالضمان الاجتماعى أو صور التأمينات(٥).

ثانيا: الحملة الشعواء التى شنّها القرآن الكريم على  
الربا وتهديده لأصحابه بحرب من الله ورسوله والتى أريد  
بها الحرب على الاستغلال الاقتصادى وضرورة ملاحظة  
الاعتبارات التى تتحكم فى الفقراء إلى درجة جعل فيها  
القرض نوعاً من الصدقة عندما سمح بتأخير دفعه إلى ميسرة  
وأنى للفقير المستدين من ميسرة؟ إن منطق الإسلام هو أن  
على الدائن الغنى أن ينظره إلى النهاية أو يحتسب قرضه  
صدقة فى سبيل الله. فإن هذا وإن أخل بحساباته فلن يعجزه..  
ولكن السداد هو ما يعجز عنه الفقير.

ولكى يعزز القرآن الكريم الجهاد بالمال، فإنه فى  
آيات عديدة حذر من البخل ومن الاكتمال وتوعّد الذين  
يكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها فى سبيل الله بالنار

---

(١) "أخت الصلاة المهجورة" وهى إحدى رسائل الاتحاد الإسلامى  
الدولى للعمل. من ص ٢٦ إلى ص ٣٠.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ  
وَوُجُوهُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسِكُمْ فذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَبُونَ﴾.

كما أنه رفع الأنصار إلى أعلى مرتبة لأنهم  
﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. {٩  
الحشر}..

وحدد القرآن الكريم فيم يكون الإنفاق..

من هنا جاء حث القرآن الكريم على الجهاد بالأموال  
واعتباره أعظم قربى إلى الله، وأولى وسيلة فى الجهاد، لأن  
أثره يعم المجتمع ويحل مشاكل الحياة اليومية فيه. ويمكن  
أن يسعد، أو يشقى، الملايين من الناس بدءاً من الأسرة  
والجار إلى كل المواطنين.

واستعراض هذا، يجعلنا بدلاً من أن نندهش لاعتبار  
الإنفاق وسيلة من وسائل الجهاد.. نندهش كيف فاتنا ذلك،  
ولم نعتبره من أولى وسائل الجهاد.

٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أسلوب التعامل مع الانحرافات

الأسباب التى تدفع بالمجتمعات إلى الانحراف عديدة  
والوقوع فيها هو مما لا مناص عنه. فقد أشرنا إلى قوة  
الشهوات وجاذبية المال والسلطة، وأشرنا إلى أن الطبيعة  
البشرية بها عرق ينزع إلى الهبوط إلى الأرض. وتحدثنا عن

الابتلاء الذى يتطلب قوة وصموداً يغلب أن لا يتوفرا لمعظم الناس. بل حتى فى مجال الهداية الإسلامية لا نعدم أسباباً تؤدى إلى الانحراف مثل سوء فهم النصوص. أو التمسك بآراء الأئمة والتعصبات المذهبية. أو العجز عن التمييز ما بين الحديث الذى لا يعتد به - والحديث الذى يعتمد عليه. وهذه كلها تؤدى إلى إنحراف فى مجال الدعوة الإسلامية والسلوك الإسلامى لا يقل عن الانحراف فى مجال الحياة الدنيا والاستسلام لشهواتها ونزواتها.

من أجل هذا كان من الضرورى أن توجد جهادية الإسلام أداة لمواجهة هذه الانحرافات. وقد أوجدتها فى "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" بحيث يجد كل واحد من يعرفه بالخطأ أو الضعف الذى ينساق إليه، وقد يكون هو نفسه ممن يقومون بهذا، وفى الوقت نفسه ممن يحتاجون إليه.

ولا يجوز أن يفوتنا دلالة التعبير القرآنى عن "المعروف والمنكر" فقد كان يمكن أن يقول الحلال والحرام أو الحسن والسيئ ولكنه استخدم تعبيراً يمثل فى دلالاته جانباً من الأعجاز القرآنى لأنه فى الوقت الذى يبعد فيه عن متاهات القضايا الموضوعية، فإنه لحظ ما يفشى بين الناس وما يحكمون عليه بمعاييرهم من أن هذا معروف يمارسونه ويتقربون إلى الله به وأن هذا منكراً يعزفون عنه ولا يأتون

منه شيئاً. فالأمر المحقق أن هذا الشيء أصبح معروفاً سواء كان حسناً أو سيئاً، ولا يمار أحد في هذا لأن الدأب اليومي في التطبيق يثبتته...

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي الأداة الشعبية ليصلح المجتمع بعضه بعضاً بحيث تستمر الجهادية الإسلام وتسير دون إنحراف.

وقد عنى القرآن الكريم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عناية جعلته يقدمه في إحدى الآيات على كل شيء إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، كما أنه في آية أخرى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبرراً لأفضلية أمة المسلمين.

- ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. { ١٠٤ آل عمران}..
- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. { ١١٠ آل عمران}..
- ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. { ١١٤ آل عمران}..

▪ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٧١ التوبة}..

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإيكاله إلى المؤمنين دلالة أخرى هي عمق التكافل والتكامل في المجتمع الإسلامي. وأن هذا المجتمع هو كما قال الرسول - كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.. فلا يملك الفرد المسلم عندما يرى منكراً ممارساً ومعروفاً مهماً إلا أن يتحرك بطريقة لا إرادية كان عمق التكامل في نفس المسلم أوجد أداة تتحرك لا إرادياً وتجعله يندفع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا حال حائل دون ذلك فإنه يحس أنه حرم ما وجب عليه، فهو صورة من تفاعل المقتضى الاجتماعي مع الإرادة الفردية.

ويدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل عالم العلاقات الفسيح وما يعرض له من تطورات، سواء في ذلك ما بين الرجل والمرأة، العامل وصاحب العمل، الفرد المحكوم والجهاز الحاكم. وعندما أعطت الآية ٧١ من سورة التوبة المؤمنين حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جنباً إلى جنب المؤمنين، فإنها أعطتهم "كارت بلانش" لولوج

كل أبواب العمل العام بحيث لا تقل مسؤولية المرأة عن الرجل في هذا المجال.

وتعبير "المعروف" و "المنكر" دون تحديد يمكن أن يجعل إطار ذلك شاملاً لكل معروف، ولكل منكر. وهذا ما يجعل تطبيق ذلك أمراً يتطلب كياسة وتعاملاً مع كل حالة، أو مع كل صنف من الناس، وملاحظة الوقت والظروف إلى آخر ما ينبغي أن يلاحظه كل أمر بالمعروف ناه عن المنكر حتى لا يسىء القيام بهذه المهمة النبيلة بحيث يولد من المنكر المنهى عنه منكرًا أكبر مما أراد القضاء عليه.. وهذا أمر لم يغب عن فطنة الذين كتبوا في هذا الموضوع فوضعوا ضوابط عديدة له. فلا تجوز الممارسة ما لم يكن المعروف المأمور به أو المنكر المنهى عنه معروفًا صريحاً ومنكراً خالصاً ولا يكون هناك ريب أو شك فإذا كان هناك ريب أو شك فمن الواجب التريث. كما يجب أن يكون الأسلوب مهذباً رقيقاً وقد قال الله تعالى عن الرسول ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. وأوحى لموسى وهارون أن يأتيا فرعون وأن يقولاً له قولاً لنا فكيف يكون الحال بداعية من عامة الناس. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون بابتسامة أو قد يكون بالتحية والسلام كما قد يتعدى "الأمر" إلى العمل كإعانة الضعيف ومساعدة المريض وإنقاذ مشرف على الهلاك. ويجب أن يلحظ دائماً أن هناك رخصاً

وتيسيرات، كما أن صغائر الذنوب لا تستحق أن نقيم لها أمراً وتهياً، لأن الله تعالى يتجاوز عنها، ولأن سلم الأولويات يقتضى البدء بالأهم قبل المهم، وليس من الصواب فى شىء أن نبدأ بأمر ضئيل الأهمية ونهدر ما هو أكثر أهمية..

وقد جاءت النصوص القرآنية كلها مقصورة على "الأمر" ولكن الحديث المشهور عن "تغيير" المنكر باليد، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فيقلبه وهذا أضعف الإيمان، أعطى مؤشراً خطأ الكثيرون فى فهمه وتطبيقه، وأوجد من "المنكر" ما يفوق ما أريد درؤه فإن استخدام اليد أمر شديد الخطورة. ويمكن أن يصبح صورة من التناول على الناس وعلى من يمارسه أن يقدر المسئولية، ويتحملها. ولا يجوز بصفة عامة ممارستها إلا فى حالات الضرورة القصوى.

وفى ثلاثينات القرن العشرين تملك الحماسة لفيفا من أعضاء "مصر الفتاة" للقضاء على الحانات فداهموا عدداً فيها ودمروا مقتنياتها، وقبض البوليس على الذين قاموا بذلك وقدموهم للمحاكمة، وفى هذه المناسبة أرسل الإمام حسن البنا رحمه الله خطاباً مفتوحاً للسلطات نشرته مجلة الإسلام فى العدد ٤٩ السنة السابعة الصادر فى ١٧/٢/١٩٣٩ ص ٦ أستنكر فيه هذا الفعل {تدمير الحانات} والطريقة التى تم بها، ولكنه فى الوقت نفسه وجه نظر السلطات إلى المعانى الموضوعية التى دفعت بالشباب إلى هذا العمل، واعتقد أن

مسلك الإمام البنا هذا هو المسلك الأمثل من زعيم إسلامي كبير يقدر كافة الأبعاد والعوامل.

### وجاء في هذا الخطاب..

"لست أقر أحداً على أن ينتقض على القانون ولست أدعو إلى العدوان في أية صورة من صوره. فقد نهانا القرآن عن العدوان، ولكني أعتقد أن عناصر الجريمة في هذه القضية مفقودة تماماً والقصد الجنائي منعدم تماماً فليست بين هؤلاء الشباب، وهذه الحانات وأصحابها صلة تحملهم على الانتقام والأجرام، وإنما حملهم على ذلك دافع شريف جدير بالتقدير هو في الواقع مساعدة للقانون على أداء مهمته، وهي محاربة الجريمة والقضاء عليها، وسد المنافذ التي يدخل منها المجرمون إلى انتهاك حرمة القانون" انتهى..

وفي السبعينات شهدت مصر انتشار ظاهرة النهي عن المنكر خاصة في الصعيد، وبين طلبه جامعتها ووصل الأمر إلى حرق أندية الفيديو، بينما كان طلبة الجامعة يترصدون لكل من يسير مع سيدة ويطالبونه بإثبات علاقته بها. كما كانوا يوقفون المحاضرات بمجرد أن يرفع الآذان..

وأخيراً سمعنا في أبريل عام ٢٠٠٠ عن اعتداء بعض الشباب على فتاه كويتية غير محجبة فضربوها، وقصوا شعرها.. مما كان له أسوأ الأثر.. في المجتمع الكويتي.

وفى المجتمع الحديث الذى بنى على التنظيم، والذى يعنى بالعمل العام، وإن لم يهمل العمل الخاص، يأخذ الشكل المنهجي والمنظم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شكل التنظيمات الأهلية فى المجتمع كالجمعيات والروابط والهيئات التى تعنى كل هيئة منها بجانب من جوانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم يقضى هذا على الدور الفردى الذى هو فى الحقيقة حجر الأساس فى العمل الدينى.

ونحن لا نكتب هنا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا باعتباره معلماً من معالم الطبيعة الجهادية للإسلام، ومن ثم فقد يكفى هذا، أما من يريد التوسع فهناك كتب عديدة منها ما أصدرناه بعنوان "تفسير حديث من رأى منكم منكراً... الخ

## ٦ - المقاصة...

### "إن الحسنات يذهبن السيئات"

يعلم الله تعالى الذى خلق الإنسان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ما يتردد فى جنبات النفس وأطواء الضمير. إن الإنسان مهما حاول ابتغاء الخير وتجنب الشر، فإنه لا يسلم من الخطأ أو ما يؤدي إليه القصور، كما لا ينجو من خطيئات يقع فيها بحكم الضعف البشرى - لأن الإنسان ليس معصوماً. وقد قال حديث "كل بنى آدم خطؤون وخير الخطائين التوابون" واعترف القرآن بضعف الإنسان فقال:

﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾. {٢٨ النساء}.. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾. {١٩ المعارج}.. وأشار القرآن إلى ضعف بنى آدم الموروث عن أبيهم الذى قال عنه القرآن ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. {١١٥ طه}.. لهذا فإن الإسلام لا يستبعد أن يقع المؤمن فى خطأ أو يتورط فى معصية، ولكن الإسلام ينتظر ممن فعل ذلك أن يندم أو يتوب أو يغير من ذلك بطريقة ما. وقد يفضل الإسلام من يذنب فيستغفر على من لا يذنب ولا يستغفر، لأن خطأ الأول قاده إلى الاستغفار أى ذكر الله تعالى وسؤاله الصفح وقبوله التوبة وهذه كلها من الأفعال التى تصلح ما أفسدته الخطيئة بل وتتجاوزها فلذلك قال حديث "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء، بقوم يذنبون ويستغفرون فيتوب الله عليهم". فليس السيئ أن يخطئ الإنسان، ولكن السيئ أن يصر على الخطأ أما إذا أفلح عنه واعترف به واستغفر الله. فإن الله يغفر له. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {١٣٥ آل عمران}.

ووضع الله تعالى فى قرآنه أسلوب المقاصة. فمن يعمل سيئة ثم يتبعها بحسنة فإن الحسنة ستمحو السيئة.

وستكسب له أجراً ومن هنا قال "إن الحسنات يذهبن السيئات" ويدرعون بالسيئة الحسنة" "واتبع السيئة الحسنة تمحها".

واستعراض هذا يجلى الأعجاز فى المعالجة القرآنية لما يثور فى النفس البشرية من عناصر القوة والضعف وما يصدر عن ذلك ويتفاعل بعضه مع بعض كأموج البحر التى تدفعه يميناً وشمالاً، ويظهر الحياة مسرح جهاد وكفاح.. تمثل فوقه معارك الخير والشر والانتصار والانهزام مع وجود قوارب النجاة التى تحول دون أن يبتلع البحر الناس ويطويهم فى أعماقه البعيدة.. وأنها تكفل للمؤمن أن يأوب شاكراً حامداً لأن الله تعالى أفسح له سبل النجاة ولأنه يكافئ عن التوبة من ذنب بأضعاف أضعافه فهو وإن كان جندياً شاكى السلاح متحزراً للحرب، فإنه من ناحية أخرى يرتع فى بحبوحة من كرم الله وصفحه ومثوبته.

لقد عسر على الفقهاء وهم رجال التقنين والتحديد، الأبيض والأسود.. أن يستوعبوا هذا التفاعل الديناميكى فى الخير والشر، وهذه المعركة التى تحمل النصر والهزيمة فأرادوا أن يقيموا سداً يحمى الحلال من تسلل الحرام. وسموا ذلك "سد الذريعة" وهى طريقة تختلف كل الاختلاف عن طريقة المقاصة التى وضعها القرآن وحبذها الرسول والتى تعبر عن ديناميكية الإسلام وتفاعله. ويعود النقص فى سد الذريعة إلى أنها استبعدت عامل المقاومة فى نفس المؤمن،

وافترضت استسلامه للأغراء بمجرد تلاقيه فأرادت حمايته بأى طريقة، وكأنها أرادت اقتلاع الأعداب حتى لا يعصرها الإنسان خمراً... واحتباس النساء فى البيوت حتى لا يفتن بهن الرجال حتى وإن كان هناك أمر صريح من الرسول "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" فقد قالوا لو شاهد رسول الله ما فعلت النساء لما أباح لهن الخروج ولأمر بالقرار فى البيوت. وهو افتيات صريح على الرسول..

القرآن الكريم يعرف أن المحارب شاكى السلاح الذى يحرص كل الحرص أن لا يهزم فى موقعة فاصلة، قد يساقت منه ما يخفف عنه ويجعله أكفاً فى القتال، ولا يعد هذا نقصاً أو تقيطاً وإنما هو تطبيق لحساب الأولويات، وقد اعتبر الرسول خالد بن الوليد كراراً لا فراراً لانسحابه الحكيم بالمسلمين فى موقعة مؤتة ومنحه لقب "سيف الله المسلول". ومن هنا أوضح لنا القرآن الكريم أنه يتجاوز عن اللوم، وعن الخطأ للذين أثبتوا صدقاً وعضماً.. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. {١٦ الأحقاف}.. ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. {٣٧ الشورى}..

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ

أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ  
انْتَقَى. { ٣٢ النجم } ..

وهذه الآيات توضح أن فارس الجهاد الإسلامي ليس هو المبرء من الخطأ، إن عملية الجهاد لا بد وأن تتخذه بالجراح. ولا بد أنه وهو يتقدم ويهاجم أن يعثر مرة أو مرتين. دون أن يؤثر هذا على مسيرته، أو ينال من روحه، وهو يعلم أن عليه أن لا يبدد جهده في الصغائر، وأن يدخرها للمعركة الكبيرة..

## ٧ - الهجرة

**كملاذ أخير عندما يضيق الخناق:**

يعرض القرآن حرصاً على بقاء المؤمنين، وعلى استمرار الإيمان، الهجرة كملاذ أخير عندما يضيق الخناق على المؤمنين وهذا ما يحدث عندما يجد المؤمن نفسه وهو مجرد من كل وسائل الدعوة بحكم ما فرضته القوى المعادية من وسائل القمع والكبت والملاحقة والتجسس.. فما أن يجتمع ثلاثة مثلاً حتى يمكن القبض عليهم لأنهم تجمعوا تجمعاً غير قانوني للتأمر على نظام الحكم! وعندئذ يجد المؤمن نفسه كالجواد المعطل..

**فأمسى لا يبال له فيرعى ولا هو في العليق ولا اللجام**

فليس هو فى السجن والمعتقل يُعذب ويقابل ذلك بالصبر والثبات، وليس هو بالطليق الذى يستطيع أن يقوم بالدعوة لمقتضيات إيمانه كتطبيق قيم الشريعة من عدل وحرية ومساواة أو ممارسة لأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. إزاء هذا الحصار الذى يحول دون ممارسة أذى درجات الجهاد، شرع القرآن للمؤمن الهجرة كمبدأ فقال:

▪ ﴿الَّذِينَ تَوْفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. {٩٧ النساء}..

▪ ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغَمَا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. {١٠٠ النساء}..

▪ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ

النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
بَصِيرٌ» {٧٢ الأنفال}..

وطبق الرسول هذا المبدأ ثلاث مرات على الأقل. فأمر فريقاً من المؤمنين بالهجرة إلى الحبشة "فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد..". ثم دفع بفريق آخر إلى الهجرة للحبشة نفسها، وأخيراً هاجر هو وأبو بكر إلى المدينة. وتقاطر المسلمون للهجرة إلى المدينة بعد ذلك بحيث أصبح تعبير "المهاجرين" يماثل تعبير "الأنصار" أي أنهم أصبحوا كتلة المؤمنين من الفترة من هجرة الرسول حتى فتح مكة عندما أعلن الرسول أن ليس هناك حاجة للهجرة بعد الفتح "لا هجرة بعد الفتح" ولكن جهاد ونية" وتواترت الآيات في مدح المهاجرين وسجلت لهم الرضا والتوبة والغفران..

■ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {٢١٨ البقرة}..

■ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ». {١٩٥ آل عمران}..

■ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَعْضِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بِعَعْضِهِمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». {٧٥ الأنفال}..

■ ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ

جَنَاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. {١٠٠ التوبة}..

▪ ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾. {١١٧ التوبة}..

وقد كانت هجرة الرسول فتحاً مبيناً وحدثاً فى تاريخ الإسلام استحق أن يبدأ به تاريخه. كما أن هجرة كثير من الأفراد أو المجموعات إلى دول قريبة أو بعيدة كان إيذاناً بدخول الإسلام إليها. وهكذا فإن الهجرة لم تحرر المهاجرين من أسر حكاهم الظلمة الذين حالوا بينهم وبين حرية العبادة. بل إنها أيضاً جعلت هؤلاء المهاجرين سادة فى بلاد جديدة وممكنهم من نشر الإسلام فيها بل لقد توجد هجرة للدعوة، وليس للمهاجرين. وقد هاجرت دعوة الإسلام إلى المدينة ففتحتها قبل أن يهاجر المسلمون إليها.

وبالطبع فإن للهجرة مشاقها فهى تعنى التخلي عن البيوت والسكن والمتاع والعتاد وما يملكونه من أراضى أو عقارات.. ثم العيش تحت سموات جديدة وفوق أرض جديدة قد يختلف مناخها وناسها، بل قد لا يتحدثون العربية. ويكون عليهم التأقلم معها وقد يتعرضون لمقاومة مجموعات معينة

ويكون عليهم أن يكافحوا ويكدوا حتى تثبت أقدامهم. والحق أن هذه المشاق كانت من الأسرار التي جعلت القرآن يمتدح المهاجرين، ويقدر تضحياتهم، ويكفل لهم أعظم الثواب.

وأسلوب الهجرة يوضح أن الجهاد في الإسلام جهاد متفتح ليس مغلقاً وأنه إذا أعتمد على الإرادة والتحكم فى النفس، فإنه يستخدم العقل للبحث عن الوسائل التى تمكن المسلم من ممارسه جهاده عندما يضيق عليه الخناق فى بلده فالجهاد الإسلامى لا يقف فى سبيله شىء، وهو يتوصل إلى الوسائل التى يغلب بها كل المعوقات والمثبطات.

\* \* \*

ليس هذا هو كل دستور الجهاد الإسلامى. لقد تحدث الرسول ﷺ عن الإيمان كبضع وسبعين شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق. وفيما بين هذين مجال أى مجال، وفسحة أى فسحة.

وعرّف الإسلام المسلمين على عالم الحلال والحرام وغرس فيهم حاسة تستشرف الحلال وتقبل عليه وتتنسم الحرام فتدبر عنه. كما عرف المسلمين بالفضائل ومكارم الأعمال..

كان يمكن أن نتحدث عن اللحم عند الغضب أو الصدق عند القول. ومعروف أن رجلاً سأل الرسول أن يوصيه فقال

الرسول "لا تغضب" ولآخر "لا تكذب" كما قال لثالث "لا تسأل الناس شيئاً".

وثابت أيضاً أن الرسول فضل إصلاح ذات البين على الصلاة والصيام والحج والزكاة..

وكان يمكن أن نتكلم، وينفح المجال للحديث عن العمل.. الذى هو مصداق الإيمان ومبرر الثواب والعقاب فى الآخرة وما فى هذا العمل من إضافة للبشرية، وتنمية للشخصية وقضاء للحاجات، وضرورة إتقانه وإعطاء كل جزئية فيه حقها.

كما كان يمكن أن نجرى مقارنة ما بين المجاهد الإسلامى والفارس الأوربى كما تعرضه لنا وقائع التاريخ الرومانى ووقائع التاريخ الأوربى الوسيط، وكيف أن المجاهد الإسلامى يجرى معركته مع نفسه التى بين جنبيه أولاً. ثم هو يتجرد من كل صفات الزهو والغرور والاستعلاء التى تغرسها فى نفس الفارس الأوربى عتاده وسلاحه، وهدف فروسيته..

وقد أجرى التاريخ بالفعل هذه المقارنة عندما جابه مجاهدو الإسلام فرسان كسرى وقيصر. وأثاروا أول الأمر السخرية بأزيائهم الرثة وعتادهم الخفيف، ولكنهم كسبوا الاحترام.. عندما بدأت المعركة وظهر أن سلاح النفس أقوى

من أى سلاح آخر يمكن أن يحمى الجسم، ولكنه لا يكفل له الإقدام والاستماتة.

إن المجاهد الإسلامى لا يريد علواً فى الأرض أو استكباراً، ومثله الأعلى هو محمد الذى دخل مكة ساجداً على قتب بغيره، وليس القائد الرومانى الذى يسير فى موكب النصر تتقدمه العربات التى تحمل الغنائم المقدسة والأسرى فى الأصفاد.

\* \* \*

فى مقدمة هذا الكتاب أشرنا إلى اللبس الذى وقع فيه المجتمع الإسلامى ما بين الجهاد والقتال وكيف أن عوامل عديدة أدت لإعلاء كفة القتال على الجهاد وأشرنا إلى الآثار الوخيمة التى نتجت عن ذلك لأن الجهاد فى حقيقته يمثل منظومة الخلق الإسلامى "وبقدر ما يحسن فهمها وتطبيقها بقدر ما يتقدم المجتمع، وبقدر ما يساء فهمها ويهمل تطبيقها بقدر ما يتخلف المجتمع. ولا يمكن للقتال أن يحل محل الجهاد أو أن يجدى جدواه، وضربنا المثل على ذلك الدولة العثمانية التى كانت قتالاً ليس فيه جهاد ولذلك ذهبت المدافع بما جاءت به السيوف وفقد حكمها كل القيم الإسلاميه فتبدد بعد أن حنت على العالم الإسلامى وأدت إلى دماره. كما ضربنا المثل بانتشار التصوف الذى كان فى حقيقة الحال الفرار من المجتمع والعجز عن مجابهة مشاكله إلى مجتمع

آخر أسطوري من إبداع أصحابه يمكن أن يجدوا فيه بديلاً يحقق لهم أحلامهم.

وسنشير هنا إلى لبس داخل إطار الجهاد نفسه هو اللبس ما بين الجهاد فى الحياة الدنيا، والجهاد للحياة الآخرة. وما وفر فى نفوس المسلمين من أن الجهاد الحق هو الجهاد ضد الدنيا. وهو التركيز على العبادات. وأن علينا أن نشترى الحياة الآخرة بالدنيا وهذا فهم سقيم أدى إليه التدهور السريع للمجتمع الإسلامى منذ أن تحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض وما فرضه هذا الحكم الاستبدادى من قيود على حرية الفكر وحرية العمل. بحيث أصبح المجال الوحيد أمام الفقهاء والشيوخ هو مجال العبادات الذى صالوا فيه وجالوا..

إن هذا الانقسام ما بين الدين والدنيا والعجز عن تحقيق التواءم بينهما هو مأساة الجهاد الإسلامى.

لأن الإسلام وقد أراد أن يكون منهج حياة لا يمكن أن يعادى الحياة الدنيا..

ولأن الإسلام حتى وإن جعل الحياة الدنيا الوسيلة والحياة الآخرة هى الغاية. فلا بد من أن يوجد اتساق ما بين الوسيلة والغاية ولا يمكن أن نطلب غاية شريفة بوسيلة دنيئة.

وحقا أن القرآن الكريم فى آيات عديدة حذر من الدنيا.. وذكرنا بالآخرة.. وذنم الأولى وحمد الثانية..

ولكن أى دنيا ذمها القرآن ؟.

إنها دنيا الأثرة. والأنانية، دنيا الضعة والخسة. دنيا التهافت على الشهوات والانصراف عن المروءات.. دنيا الجهل والاستخذاء للحكام والغفلة واتباع الأباء والأسلاف، دنيا تتجرد من القيم التى جاء بها القرآن من حرية أو عدل أو مساواة أو إخاء أو محبة أو رحمة الخ...

وأى آخرة أرادها القرآن ؟..

هل هى مجرد الصلاة، والصيام، والدعاء والتهليل والتسبيح ؟.

أن الآخرة التى أرادها القرآن تقوم على ما قدمته الدنيا من العمل الصالح، والجهاد الدائب فى مقاومة الشهوات وتحقيق المروءات.. والعمل فى مجال التجارة والصناعة والزراعة حتى يتحقق للأمة الكفاية وحتى تستطيع أن تسلح نفسها، بالخلق القوى ثم بمختلف الأسلحة التى تكفل لها الكرامة.

فليس هناك تعارض ما بين الحياة الدنيا والآخرة، والحياة الدنيا هى مزرعة الآخرة وما نزرعه فيها نحصد فى الآخرة. وسيكون الحساب والعقاب فى الآخرة على ما كنا نعمل.

وقد تقبل القرآن قول من قال ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ  
الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ  
اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ  
﴾. {٧٧ القصص}..

وقد صدق كلام الرسول كلام الله. فعندما أعجب  
الصحابه بشاب جلد وقالوا لو كان جلده فى سبيل الله صحح  
النبي ﷺ لهم هذا المفهوم "لو كان يسعى على أبوين شيخين  
فإنه فى سبيل الله أو يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل  
الله" فسبيل الله ليس مقصوراً على الصلاة والصيام.

وعندما أتى بعض المؤمنين على أحدهم لأنه يصوم  
النهار ويقوم الليل سألهم الرسول فمن يعد حاجته قالوا كلنا  
قال كلكم خير منه!! وندد بالذين يزيدون فى العبادة ويزهدون  
فى طيبات الحياة التى أتاحها الله للناس ونهى الذين يندرون  
الحج مشياً أو يتعرضون للشمس بفكرة أن تحمل عذابها يزيد  
فى الثواب !!.

والصحابه أنفسهم، الذين كان الرسول بين ظهرانيهم  
وهو رسول الله المصطفى ما تركوا أعمالهم ليكونوا بجانبه  
بل كانوا يمضون إلى الأسواق للشراء والبيع أو ممارسة  
الحرف. ولو كان الأمر أمر قربى فحسب لوضعوا أنفسهم  
عند قدميه وما تركوه أبداً...

\* \* \*

للأسف، ولعوامل عديدة أعتبر الجهاد ممارسة للعبادات الأخروية وليس عملاً وسلوكاً في المجالات الدنيوية وسار هذا حتى النهاية فوجد الذين يحسنون "الموت في سبيل الله" ولكنهم لا يستطيعون الحياة في سبيل الله.. وكان هذا في حقيقته نهاية للجهاد الدنيوي والاستغراق في الجهاد الأخرى مما أدى إلى فساد الاثنين معا.

## الباب الثاني

### القتال في الإسلام

كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، إيذاناً بفتح عهد جديد في الدعوة الإسلامية. عهد تكون فيه سيدة بلادها تحكم بالقرآن وتدين للرسول بالطاعة، وكان هذا بالطبع يختلف اختلافاً تاماً عما كان عليه عهد مكة وملاحقة قريش للرسول وحيلولتها ما بينه وبين الناس ليبلغ دعوته..

واصطحب تغيير البيئة بتغيير وسيلة العمل فبعد أن كانت في مكة الجهاد النفسى فإنها أصبحت فى المدينة القتال المسلح لأن الصراع أصبح يقوم بين كيانين كيان الإيمان بالمدينة وكيان الكفر بمكة ومثل هذا الصراع يطلق عليه الحرب، أو القتال..

كان الانتقال من الجهاد بصبره، وهجرته، ومقاصته، إلى القتال بما يعنيه من قوة ورباط الخيل وسلاح انتقالاتاً طبيعياً. رغم ما فى ذلك من اختلاف، كان مختلفاً عن سابقه ولكن مؤثلاً مع لاحقه وكان القرشيون أنفسهم هم الذين بلغوا به هذا التطور عندما حاكوا مؤامرتهم على الرسول التى كادت أن تتم لولا هجرته.

النقطة الهامة التى فاتت معظم الكتاب الإسلاميين أن هذا الانتقال كان بالدرجة الأولى تطوراً فى المواقف تطلب

وسيلة جديدة للدفاع عن مبدأ قديم وهو المحور الذى تدور عليه العقيدة إلا وهو حرية العقيدة، فلم يسن القرآن القتال كمبدأ. إنه سن الجهاد. أما القتال فليس إلا وسيلة تطلبها الدفاع عن المبدأ عندما تطلبت، بل وفرضت الظروف استخدامه..

وهذه نقطة هامة لأن القرآن يقدر الحياة، ويقدر حق الفرد فيها. وأن لا تنتزع منه إلا بناءً على أسباب محددة وضعها على وجه التعيين. وإذا كان الله تعالى قد كتب فى أحد كتبه المقدسة.. ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. فإن هذا يؤكد لنا أن الإسلام ليس سيفاً فى الأصل إنه "كلمة" جاء بها الوحي ليقرأها الناس. وعندما هوجم الإيمان، وهدد المؤمنون. لم يعد مناص من القتال، حماية له ولهم، وقد حرص القرآن الكريم على إيضاح هذه المعانى وصيانتها.

وكما ذكرنا فى المقدمة، فإن هذا التمهيص قد دق على كثير من الكتاب الإسلاميين الذين أخذوا أحكاماً من آيات القتال دون أن يتبينوا أن آيات القتال نفسها تعود إلى أصل أساسى هو حرية العقيدة والنفس. وأن هذا الأصل هو الذى قاد إلى موقف معين هو تبني القتال. وهو سبب مشروعيته وأن هذه المشروعية تفتقد إذا لم تتطلبه حرية العقيدة، أى إذا لم تعد هناك "فتنة" وبالتالي حاجة للقتال.

فالقِتال أمر كَرِيه، وقد كان كرها للمؤمنين لأنه فى حقيقته ليس إلا سفكاً للدماء وإهداراً للحياة وإصابة الآخرين بالعاهات من بتر الأيدي والسيقان الخ... ولم يجعل الله تعالى هذه الكره خيراً إلا عندما يتعلق الأمر بحماية حرية الضمير والنفس. فهذا وحده، هو الذى يعطى المشروعية للقِتال ويبرره، بل ويجعله خيراً لأن الاستسلام للحكم الظالم لا يعنى إلا مزيداً من الظلم والإذلال. ومن هنا كانت مقاومته ولو بالقِتال أفضل من الاستسلام له. بدليل أنه ما أن يلقى من يحارب الإسلام السلم ويتخلى عن الحرب حتى يستجيب له المسلمون..

## الفصل الثالث

### المناخ الذى نزلت فيه

#### آيات القتال

لا يمكن فهم آيات القتال، ولا الشكل الذى أخذته إلا بالتعرف على المناخ الذى صدرت عنه - وبسببه - هذه الآيات. إن النقلة من مكة إلى المدينة لم تكن نقلة من مكان إلى مكان ولكنها كانت نقلة إلى مجتمع جديد له صفات وخصائص تختلف كل الاختلاف عن مجتمع قريش.

لقد آمن الأنصار أعمق الإيمان، وأسلموا إلى الرسول ﷺ الأمر كله ليحكمهم بالإسلام، ولم يكن هناك أدنى شك فى إخلاص الأنصار ولا حكمة وموضوعية وكمال القيادة النبوية المعززة بالوحى. ولكن القضية لم تكن بهذه البساطة. فلم تكن النقلة قطيعة بين عهد مدنى وعهد مكى، ولكنها كانت تطوراً فى ميزان القوى. من عهد مكى لا يزال موجوداً إلى عهد مدنى بدأ فى الظهور. لأن المشركين أى أهل مكة - تملكهم الغيظ عندما استطاع النبى أن يفلت من قبضتهم وأن يهاجر ليجد أنصاراً يحمونه ويضعون سيوفهم فى خدمته وطوع أمره. ومن ثم عقد المشركون العزم على ملاحقته قبل أن يستغلظ أمره.. ورأوا أن من الضرورى إصلاح خطأهم

عندما أقلت منهم إلى المدينة خاصة وأن المدينة يمكن أن  
تهاجم قوافلهم التجارية التي كانت عماد حياتهم.

وكان في المدينة نفسها جالية قوية من اليهود  
استوطنوها منذ عهد طويل وأقاموا بها الآطام أي الحصون  
وسيطروا على التجارة والحرف فيها. ومع أن الرسول حاول  
أن يسترضى هؤلاء اليهود فعقد في الأيام الأولى لدخوله  
المدينة اتفاقاً يعطيهم حق المواطنة، ويجعلهم مع المسلمين  
"أمة واحدة لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" إلا أنهم نقموا أن  
لم يكن هذا النبي العظيم منهم، وأن يخرج إطار النبوة من  
بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل. فضلاً عن أن الأخوة  
الإسلامية الوثيقة بين الأنصار قضت على سياسة "فرق تسد"  
التي كان اليهود يتبعونها ما بين الأوس والخزرج ويحولون  
بذلك دون اتحادهم. ومن ثم فقد وقف هذا المعسكر موقف  
المتربص الذي إذا بدت له فرصة القتال قاتل. وإذا لم يجد  
لاذ بوسائل من النفاق وإدعاء الحيلة، أو نصب المكائد ودس  
الدسائس.

وكان في المدينة نفسها، ومن الأنصار أنفسهم، قلة  
تلتفت حول زعيم الخزرج عبد الله بن أبي الذي كادت  
الأنصار تتوجه ملكاً قبل ظهور الرسول. فلما جاء الرسول  
تبدد هذا الأمل وضاعت على بن أبي فرصته في أن يكون  
ملكاً. ولم يكن لعبد الله بن أبي رغم منزلته الرفيعة اتباع بل

إن ابنه نفسه كان من خيار المؤمنين. ولكن يظل الأمران شخصاً يمثل هذه المنزلة يكن عداوة عميقة للإسلام، لا بد وأن يكون لها آثار.

ولم تكن العلاقة بين المهاجرين والأنصار مشكلة، لأن أخوة الأنصار استوعبت الوضع الجديد رغم أن وضعهم كان أشد الأوضاع حرجاً لأن المهاجرين شاركهم الأرض وزاحموهم السكن. وكان هذا وذاك يمكن أن يثير النفوس ولكن أخوة الإسلام وإيثار الأنصار الذى امتدحه القرآن. ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. بدد كل الآثار السيئة التى كان يمكن أن يحدثها هذا التطور الجديد. وفى مرحلة لاحقه صحح الرسول وضعه هؤلاء المهاجرين..

مناخ المدينة إذن، رغم حماسة الأنصار، وإيمان المهاجرين. لم يكن صفواً خالصاً. لقد كان فيها أعداء يكتمون عداوتهم ومنافقون يخفون طويتهم.. بينما كان المشركون يعدون العدة لمعركة لا بد وأن تقع قربت أو بعدت..

فإذا كان مناخ مكة قد أفرز "دستور الجهاد" فى مقابلة الاضطهاد. بكل مفرداته التى أشرنا إليها فى الفصل الأول، فإن مناخ المدينة كان لا بد وأن يفرز القتال لأنه عندما ينشأ صراع بين قوتين متميزتين يكاد يكون كل منهما "دولة" فإن هذا الصراع يأخذ اسم القتال أو الحرب..

وفى الحقيقة كانت القضية أكبر من هذا بكثير..

فلم تكن الهجرة إلا الخطوة الأولى على طريق "ثورة الإسلام" فالإسلام لم يكن دين كهانة كبقية أديان العرب إنه كان الثورة العربية الكبرى التى تحل "الأمة" محل القبيلة، والشريعة محل التقاليد. والله محل الأوثان. ولعل قريش تذكرت كيف رفض محمد المُلْك والرأسه عندما عرضتها قريش عليه، فلو كان الأمر أمر رئاسة لقبل محمد وأختصر الطريق، ولكن كانت إرادة الله سابقه أن يجمع محمد العرب فى أمة واحدة تحمل رسالة الإسلام إلى العالم، وكان لا بد لذلك من حروب تصهر وتذيب العصبية القبلية فى أخوة الإسلام ومواطنة الأمة. بل لقد ظهر أن هذه الحرب كان لا بد أن تستمر عندما تصورت بعض القبائل العربية بعد وفاة الرسول أنها تستطيع أن تتشقق وترتد إلى النظام القبلى، وكان على أبى بكر أن يقوم بما قام به "لنكولن" بالنسبة للأمة الأمريكية بعده بألف عام - الحفاظ على وحدة الأمة ولو بالسيف.

وهكذا جوبه الإسلام بضرورة وحتمية القتال فلم يكن المشركون ليتركونه، ولم يكن اليهود ليقتلوا عن دس الدسائس وتأليب الأعداء الخ... ولم تكن المجموعة القليلة من "الأعراب" أو اتباع بن أبى الذين أطلق عليهم القرآن الكريم "المنافقين" ليتركوا الإسلام فى سلام وما كان

المسلمون بالذين يتراجعون عن دورهم التاريخي  
والحضارى الكبير.

كان لابد من الصدام بين أوضاع تقليدية قديمة فاسدة،  
وأوضاع جديدة ناهضة. كان اللقاء ما بين الإسلام والوثنية  
هو أول حلقة فى "صراع الحضارات" إذا أصبنا التعبير.

\* \* \*

هكذا جوبه الإسلام بموقف جديد هو القتال فكان عليه  
أن يعلن تصوره له..

فى آيات عديدة أوضح القرآن أن "دفع الناس بعضهم  
ببعض" وهو التعبير الذى كنى به القرآن عن القتال هو أحد  
الضرورات التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى. لأن هذا الدفع  
هو الذى يحول دون استئثار أو تحكم فرد أو فريق فى الأمر  
إذا لم يجد من يدفعه. ومن ثم فإنه مبدأ أصولى من مبادئ  
الاجتماع الإنسانى. وقد جاء التعبير عن ذلك مع صدور  
الإذن بالقتال الدفاعى فى آيات سورة الحج ٣٩ - ٤٠.

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ  
لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا  
رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّمتُ صَوَامِعُ  
وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ

اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾. ثم جاءت آية البقرة تؤكد هذا المعنى.

وكذلك...

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. {٢٥١ البقرة}..

ومن الواضح أن هذا المبدأ يتفق أساساً مع الطبيعة الجهادية للإسلام، وتصور الإسلام للحياة كصراع ما بين غواية الشياطين وهداية الأنبياء قدر ما يتفق مع ما أثبتته الوقائع والتاريخ عن المجتمع البشرى.

وما ظل هذا الصراع يقوم لدرأ الفساد والغواية ولتحقيق الصلاح والهداية ويكون في حماية العقيدة والنفس فإن الإسلام يتقبله، بل ويشجع عليه. ولكن عندما تتقلب الآية فيكون الصراع في سبيل الثروة أو القوة أو السلطة الخ... فإن الإسلام يرفضه وعندما سئل الرسول عن الرجل يحارب شجاعة أو شرفاً أو حسباً الخ... قال من قاتل لتكون كلمه الله هي العليا فهو في سبيل الله.

ومن هنا، فإن الهدف الوحيد المسموح به للقتال في الإسلام هو الدفاع عن العقيدة أو عن النفس أو عن الملك المشروع. أي أنها في جميع الحالات حرباً دفاعية وفي غير

هذه الحالات فإن الحياة الإنسانية مقدسة ولا يجوز المساس بها.

هذا بالنسبة لغاية الحرب والهدف منها أما عن الوسيلة التي تتخذها الحرب فقد وضع الإسلام توجيهين الأول تطلبته طبيعة القتال. وهو أن الحرب جد خالص لا يصلح معها التراخي، أو التخاذل، أو التهاون، أو الميوعة لأن أى تخاذل يعنى الهزيمة، أى العار وفقد الشرف والكرامة.. ثم النفس أيضاً..

من هنا جاءت توجيهات القرآن صارمة. فهو يستحث المسلمين للقتال، ويرفع معنوياتهم، ويوحى ببذل غاية الجهد وأن "يُتَخَنُوا" فى العدو.. لأن نتائج الاستهانة لا تقتصر على الهزيمة، ولكنها يمكن أن تؤدى إلى زيادة سفك الدماء أما الشدة من البداية، فإنها تضمن نهاية سريعة وتكون أكثر رحمة. بل يرى القرآن الكريم أن إعداد العدة بصورة جادة قوية ومؤثرة يمكن أن يصرف العدو عن الاعتداء وهذا هو "الإرهاب" الحميد الذى يحول دون نشوب اللقاء ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

وهذا التوجيه هو سر الشدة التى نلمسها فى الكثير من آيات القتال، وأى خبير فى الحرب والقتال إذا لم يحمدها فإنه

يرى أنها ضرورية ولا مناص عنها وسنشير عند استعراضنا الآيات إلى بعض ملاحظات ذلك.

أما التوجيه الثانى فهو أنه جعل أسوأ حالاته هو المعاملة بالمثل بحيث لا يجوز استخدام وسيلة أكثر سوءاً مما يستخدمها العدو. وهذا الحد الأدنى يرفقه الإسلام بما يرفع مستواه وما يجعله متفقاً مع القيم الإسلامية، فلا يجوز تدمير أو تحريق أراضى وممتلكات ولا يجوز اقتلاع أشجار أو الاستحواز على محاصيل أو أقوات إلا بالثمن وما أن تضع الحرب أوزارها ويقاد الأسرى إلى محبسهم حتى يتم التصرف فيهم على أساس المن أو الفداء. وهذا ما لم يكن يحلم به المهزومون أمام الجيوش الرومانية الذين كانوا يعلمون أن النخاسين وتجار الرقيق يسيرون بصحبة الجيش لشراء الأسرى واسترقاقهم.

وقد بينت وصية الرسول ﷺ للجيوش المحاربة، وكذلك وصية أبى بكر وعمر أن على هذه الجيوش أن لا تقرب النساء أو الأطفال أو الشيوخ، أو الرهبان أو الأدبار والكنائس، وأنه لا يجوز لهم أن يضعوا أيديهم على أى شىء إلا بالثمن وأن لا يذبحوا شيئاً إلا لمأكله.

كذلك مما يتعلق مع توجيهات القرآن أن يتقبل المسلمون كل بادره للسلام ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

قد يجوز لنا أن نقدم إضافة فيما يتعلق بعرض "السلم" أو إبداء بادرة صلح. لأنها تبرز ما ترسب في نفوس المؤمنين بفضل القرآن وما اقتضاه من ضرورة الالتزام بإيقاف الحرب لدى أى بادرة للصلح أو السلم من الآخرين، فقد أرسل أحد الموالى إلى أهل حصن يحاصره المسلمون بالأمان. وفتح المحاصرون أبواب حصنهم بناء على هذا. ورفض قائد الجيش الالتزام بما حرره المولى. ولكنه كتب إلى أمير المؤمنين، فأخبره بأن يمضيه "لأن المسلمين عدول يسعى بذمتهم أدناهم" وكذلك ما روى عن تمرد قام به بعض سكان قبرص فى ولاية عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس فكتب هذا إلى لفيف من التابعين يستفتيهم فى نقض عهدهم أمانتهم فرد الليث بن سعد أن لا يسرع لأن أمان أهل قبرص كان ساريا لمدة طويلة وما من أحد من الولاة بنقض صلحهم ولا أخرجهم من بلدهم وأنا أرى أن لا تعجل بنقض عهدهم ومناذتهم حتى تتم الحجة عليهم.. وكتب موسى بن أعين وإسماعيل بن عياش بهذا المعنى وأفتى معظمهم بحفظ العهد ونصحوا الحاكم بالتريث(٦).

\* \* \*

كان الإسلام ثورة أعمق من الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية وكانت مقومات الثورات فيه على أمثلها فهناك

---

(١) استشهد بها فى كتاب حقوق الإنسان للدكتور محمد فتحى عثمان.

النظرية أو بمعنى أدق العقيدة التي تختلف أو حتى تضاد ما كان سائداً من عقائد.. وهناك مشاركة كاملة وفعالة من الجماهير وهناك إرادة قوية لا يقفها الموت نفسه للتغيير. وكانت الثمرة التي حققتها ثورة الإسلام أبعد مدى مما حققته الثورتان الفرنسية والبلشفية لأن ثورة الإسلام خلقت من القبائل العربية المتنازعة التي كانت تفخر بسبق جواد أو قرابة نسب أو كسب رهان وقمار... إلى أمة متماسكة تحمل الكتاب والميزان إلى من حولها من حضارات كسروية وقيصرية، ونظم طبقية تقوم على استعباد الجماهير وتسخيرها..

### ومع هذا...

لم تعرف ثورة الإسلام مشاهد "الحيلوتين" ولا النساء اللاتي جنن خاصة ليتسلين بمشاهد الإعدام، ولا عهد الإرهاب. ولا وسائل التخلص من المعارضين ولو بإغراقهم. ولم تشهد شيئاً من ويلات وفظائع الثورة البلشفية ولا إبادة كل الطبقة الحاكمة وأولادهم ونسائهم وخدمهم ولا عشرة ملايين من صغار الملاك الذين رفضوا تسليم أرضهم لأنها مصدر قوتهم وعيشتهم فأخذت منهم عنوة، كما أخذ كل ما لديهم من محاصيل وتركوا ليموتوا جوعاً وبرداً وقيل عنهم "كولاك" أى ملاك الخ... إن شيئاً من هذا لم يحدث فى ثورة الإسلام ولا يجاوز قتلى الحروب فى عهد الرسول سواء من

العرب المسلمين أو المشركين ألف نفس. كان يمكن أن يضحى بها فى أحد أحياء باريس أو موسكو.. أيام الثورة الفرنسية أو البلشفية دون أن يعلم بهم أحد..

إن الثمن الذى دفعته ثورة الإسلام من دماء أنصارها أو دماء أعداءها لم يكن إلا جزءاً ضئيلاً لا يكاد يعتد به مما سفك من دماء فى الثورتين. وما ارتكب من فظائع. وما خلفناه من دمار.

لو جاز أن تقوم ثورة دون دماء لكانت هى ثورة الإسلام. ولكن تأبى أوضاع المجتمع، ويأبى تمسك ذوى المصالح المكتسبة، والمتوارثة من العهود القديمة أن يتنازلوا عنها. ومن ثم تحتم القتال. وقد تم هذا بأقل قدر يتصور فى ثورة الإسلام عهد الرسول.

\* \* \*

هناك موقف ثالث لم نتحدث عنه فيما سبق وهو الموقف من الآخرين. الذين لا يحاربون الإسلام والمسلمين، ولم يضطهدوهم أو يخرجوهم من ديارهم وهؤلاء تحكمهم الآية ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. { ٨ الممتحنة}..

\* \* \*

هذا هو ما قاله القرآن الكريم عن "القتال" وحتى يطمئن القارئ فسنعرض تحت أنظاره كل ما جاء عن هذا الموضوع خاصاً بغايته، ووسيلته والموقف من الآخرين ليلى القارئ بوجهه نظر القرآن كاملة عن هذا الموضوع. ولو اتسع لنا المجال لكان يجب أن نعرض وجهة نظر القرآن عن مجالات أخرى قد لا تتصل بطريقة مباشرة بالقتال - ولكنها تتصل بطريقة غير مباشرة مثل قبول الإسلام للتعددية وإرجاء الاختلافات ما بين العقائد إلى الله تعالى ليفصل فيها يوم القيامة. والتركيذ على العدل الذى لا يجوز لشئان قوم أن يحملهم على أن لا يعدلوا الخ... لأن من يريد أن يجزم برأى القرآن فى موضوع لا يجوز له أن يقتنص آية أو آيتين عن هذا الموضوع، بل قد لا يكتفى أن يأتى بكل الآيات عن هذا الموضوع لأن من المحتمل أن يوجد فى القرآن الكريم آيات أخرى تختلف فى طبيعتها ومعناها عن الآيات التى أوردها فى موضوعه ويكون من الضرورى الإمام بها، ويكون له أن يأخذ بآيات معينة دون آيات أخرى وأن اختلفت فى معناها عن الأولى لأنها فيما يرى الأفضل لا على سبيل النسخ المزعوم لأننا لا نؤمن أن فى القرآن الكريم ناسخاً ومنسوخاً، ولكن فى القرآن بدائل وسعه وفسحه وتعددية بحيث يتجاوب القرآن مع التطورات المختلفة ومع الافهام المتفاوتة، ولا يكون هناك حرج على من يمسك بآية رغم وجود آية أخرى مختلفة، لأن كل آية تمثل بُعداً، أو جانباً من

الحقيقة المتعددة الأطراف والأبعاد. فلا بد أن تكون هناك آيات تأمر بالقتال عندما يقاوم المشركون المؤمنين ولا بد أن تكون هناك آيات تمنع الحرب ما لم يكن هناك فتنة أو اضطهاد وهناك آيات تأمر بالسلم إن جنحو له، وآيات تفضح مكائدهم ونقضهم للعهد فكل هذا لا بد أن يتضمنه القرآن ولا يقال إن بعضه يعارض البعض الآخر، لأن لكل آية مكانها ومناسبتها، وأسبابها. المهم أن ينتزع أحد آية من سياقها وأن لا يتعصب كل واحد لما ينتهي إليه أو يظن أن ما أن يراه هو الحق الوحيد والمؤكد وأن ما سواه باطل لا ريب فيه. لأن القرآن للجميع، وفيه سعة وفسحة ولأنه يعالج الظروف المتغيرة والمتطورة ولأن أي واحد لا يستطيع أن يقول في القرآن برأيه، وإنما قصارى ما ينتظر منه أن يفهم بقدر قدراته، وليس هو مسئول عن الآخرين، وإنما هو على نفسه بصيرة وله أن يقول هذا فهمي ولكم فهمكم... لا يفرض أحدنا فهمه على الآخر، ولأن قول أي واحد، مهما علا، في القرآن لا يحسب على القرآن، وإنما يحسب على قائله، فهو اجتهاد منه في فهم القرآن الكريم، واجتهاده قد يصيب وقد يخطئ..

ولما كان القرآن يتحدث بطريقته الخاصة عن القتال أو ما يتعلق به في سور عديدة، ويزجي في كل سورة جانباً دون ترتيب معين. فسنعرض لكل ما جاء في دفتي المصحف

بدءاً من البقرة حتى سورة الناس ولما جاء في هذه السور  
من آيات خاصة بالقتال وسنشير إلى الترتيب التاريخي بقدر  
ما تسمح الفرصة...

## الفصل الرابع

### آيات القتال فى القرآن الكريم

سنسير مع القرآن الكريم آية فآية لنبرز الآيات التى جاءت عن القتال من سورة البقرة حتى سورة الناس والهدف من هذا أن يأخذ القارئ الفكرة الكاملة لكل ما جاء فى القرآن عن هذا الموضوع فتتكامل الصورة فى ذهنه. وهذه طريقة تختلف كل الاختلاف عن الاتكاء على آية منزوعة من سياقها..

ومع أن قارئ ما جاء فى هذا الفصل سيلم بالطبع بكل ما جاء فى القرآن الكريم عن القتال وتتوفر له الصورة الكلية عنه، إلا أننا بعد هذا كله نقول إننا لا يمكن أن نأخذ الصورة الكلية تماماً إلا فى مضمون القرآن كله. فرغم كثرة الآيات، وصرامة بعضها. وسماحة البعض الآخر وهو أمر أشرنا إلى مقتضياته من قبل - فإن الأغلبية الساحقة من آيات القرآن توجه الإنسان لله تعالى ولمثوبته ورحمته - وهى تتضح بالحكمة والقيم وعمل الخير وتجنب الشر. وهى تحض على العفو والصفح ومكارم الأخلاق، وهى تعيد الأمر كله إلى الله يوم القيامة. فوضع آيات القتال وسط بقية الآيات يحكمها سياقها، وتأخذ منه مكانها وتظهر الطبيعة الاستثنائية لها وسط الطبيعة الإيمانية القلبية، وعالم الخير والسلام

والعدل الذى تتوخاه الآيات، والحكمة والموعظة الحسنة التى أنزلت لهداية الإنسان إلى الله. لأن القرآن كتاب هداية ومعظم توجيهاته تتركز على هذا، وما آيات القتال إلا معالجة لجانب من جوانب تطور الدعوة استكرهت عليه أو هى إحدى ضرورات التعقيد فى المجتمع البشرى.

ولكن هذا، أعنى فهم كل آيات القتال وسط كل آيات القرآن، لا يتأتى إلا إذا أوردنا القرآن كله، وهو ما لا يسمح به المجال، ولذا لزم التنويه، ويا حبذا لو استصحب القارئ مع آيات القتال بعض الآيات التى تسبقها وتلحقها لأن هذا يزيد فى فهمه لآيات القتال..

وقبل أن نتقصى آيات القتال، قد يكون من المفيد أنه نوجه نظر القارئ إلى القرآن الكريم يفرق بين "قتل" "وقاتلوا" ليس بحسب حكم الصياغة اللغوية ولكنه لاختلاف الحكم. فإن "يقتل" فرد فرداً آخر فإنه يرتكب أعظم موبقة وقد صور القرآن ذلك بما لا يكون بعده غاية فمن قتل نفساً بغير نفس وفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً وأوجب القرآن فى القتل القصاص وأعطى ولى المقتول "سلطاناً" أما إذا حدث خطأ فتحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهله. وهذه الآيات توضح قداسة الحياة الإنسانية. وأنه لا يجوز مطلقاً إهدارها إلا قصاصاً.

ولكن الأمر يختلف عندما لا يقع الفعل من فرد على آخر، ولكن يشترك الاثنان فعندئذ لا يكون قتلاً.. ولكن قتالاً..

\* \* \*

لنبدأ إذن من البقرة "فجد الآية ١٩٠" ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُواكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

البقرة {

هذه الآيات تصلح نموذجاً لتقرير الموقف من الذين يقاتلون المؤمنين، ومنها يتضح أن قتال المؤمنين هو رد على قتال المشركين لهم ورغم ما يبدو في نبرة الكلمات الأولى "وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ" من شدة فإنها محكومة بضوابط ما

جاء قبلها، وبعدها. فالأمر هو بقتال "الذين يقاتلونكم" فأخراجهم يكون كما أخرجوا المؤمنين مع النهى عن الاعتداء مع ملاحظة أن محاولة المشركين فتنة المؤمنين أشد من القتل وهذا مبدأ رئيسى فى آيات القتال لأنه هو السبب المبرر للقتال. والذى يجعل القتال قتالاً فى سبيل حرية العقيدة فى مواجهة محاولة إملاء العقيدة. وحرمت الآيات القتال عند المسجد الحرام، ولكن إذا قاتلوكم عنده، فلا مناص، ويتعين القتال "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله" وهو تعبير يذكرنا بالتعبير الذى أشاعه بعض الأخوة الأقباط، وهم دون أن يعلموا إنما يكررون بالحرف ما جاءت به الآية "أن الدين لله" والآية توحى باستبعاد تدخل البشر فيما هو لله وتركه لله وهو ما يتفق مع استبعاد الإسلام الأحرار والسنة، والمؤسسة الدينية ومع تقريره لحرية العقيدة وأنها قضية شخصية.

وقد يوضح هذا تماماً ما رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه، أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبى ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعنى أن الله حرم دم أخى، قالوا: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾. فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

فهذا النص يوضح تماماً أن تدخل الحكام هو نوع من الفتنة التي تجعل الدين لغير الله، ويؤكد ما جاء في تفسير بن كثير للآية عندما سئل ابن عمر عنها فقال "فعلنا على عهد رسول الله، إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه فلما كثر الإسلام لم تكن فتنة" فهذا النص يوضح أن تدخل الحكام هو الفتنة التي تجعل الدين لغير الله، وإذا انتفى لم تكن فتنة وبالتالي قتال.

وتقرر الآية ما سنقره آيات عديدة من تأكيد مبدأ المقابلة بالمثل بحيث لا يكون هناك عدوان إلا على الظالمين - ولا يعد وقتنذ عدواناً لأنه رد الظلم.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. { ٢١٧ البقرة }

تقرر الآية أن القتال قد كتب على المؤمنين رغم أنه كره لهم. وتلك نقطة هامة. فالطبيعة البشرية هي الطبيعة البشرية وقد كان - وسيظل القتال - عملاً كريهاً، لأن الإنسان يدخله قاتلاً أو مقتولاً أو مجروحاً.. وكلها بدائل سيئة، والعافية أسلم وأحب، ولكن الآية توضح "وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ" فالأمر ليس أمر هوى أو حب، ولكن أمر ضرورات وواجبات والتزامات ومقتضيات تفرضها قيم الخير والسلام والحرية والعدل فى مواجهة القسر وإجبار الناس على ترك ما يؤمنون به والأخذ بما يؤمن به الآخرون وهذه هي الفتنة التي رأى القرآن أنها أشد من القتل وأسوأ من القتال لأن ذلك يعنى سيطرة الظلم والاستبداد والقضاء على الحرية. وأوضحت الآيات أن الشهر الحرم إذا حاربوا فيه. فعليكم بالرد، لأن البادئ أعظم..

وأوردت الآية حكماً هاماً. ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وهى إحدى بضع آيات تذكر الردة صراحة ثم لا ترتب عليها عقوبة دنيوية والقرآن فيما يتعلق بالعقائد لا يقرر عقوبات دنيوية، لأن هذه العقوبات ليست من طبيعة العقيدة وإنما يقرر عقوبات أخروية لأنها من طبيعة العقيدة.

هناك آيات عن قتال فرض على بنى إسرائيل ولكنهم تولوا إلا قليلاً. "الآيات ٢٤٦ - ٢٤٧" لا تدخل في شرعية القتال الإسلامية..

في سورة آل عمران نجد آيات عن موقعة بدر (٧) لها طابع خبري ولا تتضمن أحكاماً "الآيات ١٢٢ - ١٢٦" كما فيها إشارة.. ﴿وَكَايْنٌ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. {١٤٦ آل عمران}..

وتتطرق السورة إلى حديث عما أصاب المسلمين في غزوة أحد، وسلوك المنافقين وتختم بالآيات الرائعة عن مصير الشهداء. وهي آيات لها طابع خبري، ولكنها تتضح بالحياة وتصور الموقف تصويراً فعالاً..

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا

---

(١) وفي بعض الروايات أنها عن أحد.

بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ.

{ ١٧٤ آل عمران }

رغم أن سورة النساء قد عنيت بقضية المرأة وإنصافها من ظلم الرجال، فإنها تضمنت آيات هامة في القتال وإن كان لبعضها الطابع الخبري، ففيها أحكام وتوجيهات أبرزها الآية التي اتخذها فريق من الخوارج شعاراً لهم وسموا ببعض ما جاء بها فقيل لهم الشراة وهي. ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ

آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ  
 الطَّاغُوتِ فَفَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ  
 ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا  
 الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ  
 يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ  
 عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ  
 وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظَلْمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيِنَّمَا تَكُونُوا  
 يُدْرِكُ الْمَوْتَ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ. {٧٨ النساء}..

وفى هذه الآيات ما فى آيات سابقة من بناء القتال  
 انتصافاً للمستضعفين من الرجال والنساء وقررت أن ﴿الَّذِينَ  
 آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ  
 الطَّاغُوتِ﴾. سواء كان هذا الطاغوت ملكاً مستبداً أو صنماً  
 معبوداً أو شهوة طاغية بالمال أو نساء الخ... ونددت بالذين  
 خافوا القتال وتمنوا لو لم يكتب عليهم وأيقظتهم من أوهامهم "  
 أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُ الْمَوْتَ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ " آية  
 ٧٨ النساء..

وتستطرد الآيات إلى حديث طويل عن المنافقين:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ  
 مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ  
 وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفَلُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفَلُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا. { ٨٥ النساء }..

### وتستطرد الآيات في إشارتها إلى المنافقين..

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ

وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)  
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا  
رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ  
السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ  
وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا. { ٩١ النساء }..

علينا أن نذكر أن هذه الآيات نزلت والإسلام الناشئ  
محصور في المدينة يكافح اليهود والمشركين في الخارج ثم  
يتعرض لمؤامرات المنافقين - الذين يمكن أن تطلق عليهم  
الخنوة - في الداخل.

وتشير الآيات إلى مدى المعاناة المضنية التي عاناها  
الرسول والمؤمنون في مواجهة مؤامرات فريق من المنافقين  
يعيشون وسطهم. ويضمرون مع ذلك عداوة عميقة للمسلمين  
لا تحمى إلا بأن يعودوا كفاراً وتصل عداوتهم حد التكفير في  
التأمر عليهم عندما يقومون الصلاة، وظهر ذلك في  
تصرفاتهم في أحد وما أوقعوه بالمسلمين عندما انخذلوا بنلت  
الجيش وما أشاعوه من إشاعات.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ  
مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ  
وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِزْبَهُمْ

وَأَسْلِحَتَّهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾. {النساء}..

يبدو أن غرغرينا الخيانة أصابت فريقاً من هؤلاء  
ووجب استخدام الحسم لذلك جاءت الآيات صارمة.

وفي الحقيقة أن سورة النساء تابعت في آيات لاحقة  
المنافقين وكشفت سرائرهم وحذرت المؤمنين منهم.

على أن زهد القرآن في هذا المجال - رغم النزول  
على ما تتطلبه الضرورات من حسم، جعله يستثنى من لديهم  
من المسلمين ميثاق عدم اعتداء مع المؤمنين وإذا اعتزلوا  
المؤمنين فلم يقاتلوهم وألقوا إليهم السلم فما جعل الله للمؤمنين  
عليهم سبيلاً وفي مقابله هؤلاء الذين يغلب عليهم السلم أو  
التردد فهناك فريق آخر كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها.  
فإن لم يعتزلوكم أو يلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم ففي هذه  
الحالة يستحقون القتل. "أينما تقفوا" وهذه كلها تحذيرات تجمع  
ما بين عدم المساس بمن لم يبدأ والذين كلما ردوا إلى الفتنة  
أركسوا فيها وما ينبغي أن يعامل به هؤلاء من حسم.

وهكذا يتضح أنه ما دام الموضوع هو القتال، فلا  
إنصاف أو اعتدال أكثر من ذلك..

بل أكثر من هذا.. لقد تضمنت سورة النساء آية عن أشد فئات المنافقين نفاقاً ولم توجب عليهم عقوبة دنيوية لهذا النفاق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾. {١٣٧ النساء}.. فمع أن القرآن كشف خبيثتهم، وأعلن كفرهم مرة بعد أخرى، فإنه لم يوقع عليهم عقوبة.

إن مقارنة معاملة هؤلاء الذين آمنوا، ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً - وليس هناك بالطبع ما هو أبعد من هذا، بمعاملة المنافقين في الآيات السابقة عليها توضح أن الآيات السابقة أرادت مجموعة من المنافقين المقاتلين أو المتآمريين ومن هنا جاءت أحكام قتالهم. أما الذين كفروا بعد إيمانهم وازدادوا كفراً فإنهم لم يعلنوا، أو يضمروا حرباً، ومن ثم ترك عقابهم إلى الله يوم القيامة.

في سورة الأنفال نجد حديثاً طويلاً مؤثراً عن بدر، ولكنه ذا طابع إخباري وأن تضمن آداب القتال وما ينبغى على المؤمنين سلوكه عند الزحف" حتى تأتي الآية:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ  
بَصِيرٌ (٣٩)». {٣٩ الأنفال}..

وقد شرحنا معنى "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله  
للّٰه" من قبل ولا مانع من الإشارة إليها فالجملة واضحة فهى  
تستبعد الفتنة أى إجبار الناس على تغيير المعتقد - كما جاء  
فى سورة البروج ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ  
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. {١٠  
البروج}.. فإذا استبعدت الفتنة أصبح الدين لله. بحيث لا  
يكون قضية يتقاتل ويتجادل عليها البشر، وبهذا يكون المعنى  
الحقيقى بعيداً عما قد يتبادر إلى ذهن بعض المتعصبين من  
أن المقصود أن يكون الدين هو الإسلام فى حين أن نص  
الآية ويكون الدين كله لله: يشمل كل ملل الدين، وأن قصره  
على الإسلام يناقض الآيات التى تركت الأديان الأخرى  
(المسيحية، واليهودية، والصائبة والذين هادوا الخ...) على  
ما هى عليه ووكلت إلى الله وحده الفصل بينهم يوم القيامة.

ولو كان الغرض من تعبير أن يكون الدين كله لله  
الإسلام هو لوجب أن يغير هؤلاء دينهم إلى الإسلام فإن لم  
يفعلوا ذلك طواعية فجباً وقسراً. وهو ما يكون "فتنة"  
ويؤدى هذا التفسير إلى عكس معنى الآية.

وواضح أن الأمر بالقتال هو بالنسبة للذين كفروا  
ويصرون على قتال المسلمين أما إذا "انتهوا" فسيغفر لهم، بل

إن آية القتال نفسها تعيد "فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير".

وتشير - سورة الأنفال - مرة أخرى - إلى الذين ينكثون عهدهم في كل مرة...

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦) فَمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. {٦١ الأنفال}..

وهذه هي حقائق الحياة الصلبة، والمرة، والتي ليس منها مناص. ومع هذا، فإن الشعار الإسلامي هو لا تتمنوا لقاء العدو.. فإذا لقيتموه فاصبروا".

وفي هذه الآيات إشارة إلى تبرير القتال عن نكث العهد (خاصة عندما يتكرر) والآية ﴿فَمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ

بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». توحى بقطع مادة النكث والخلاف، وكما ذكرنا فإن أولى ضرورات الحرب تقضى باستئصال مادته وعدم التهاون معه لأن هذا يعيده جذعه ويفسد الانتصار.

وتضع الآية ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾. مبدءاً يقوم على المعالجة الوقائية وتقويت الفرصة على الخائنين. كما تضع آية " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إِلَخ... " مبدأ الردع فى الحرب فما يوقف العدو عن شن غاراته هو معرفته أن عدوه سيرد عليه بقوة. وأن لديه من السلاح ما يكفل له الانتصار، وعندئذ فإنه سيفكر طويلاً قبل أن يغامر بالهجوم.

وكلام القرآن هنا هو ما يقرره كل قادة الحروب وأسائذة الفن العسكرى. أما الجديد، الذى قد لا يأتون به ضرورة، فهو تأكيد القرآن على التجاوب مع أى دعوة للجنوح للسلم أو عرض للصلح. وهو ما يوضح تفضيل القرآن للسلم، وأن كل دعوة للقتال أو الحرب هى رضح للضرورات أو دفاع عن الحريات.

فى سورة التوبة، وهى إحدى السور الأخيرة للقرآن أراد الإسلام أن يطهر الأرض المقدسة من المشركين إلا إذا تابوا، فإذا تابوا فقد أصبحوا مسلمين كما أذنت بقتال المنافقين.

وقضت هذه الآيات بأن لا يطوف بالبيت عريان وأن لا يحج إليه مشرك، كما كانت إيدانا بتصفية المشركين فاما أن يسلموا، وإما أن يغادروا هذه الأرض بعد أربعة أشهر.. وإلا عرضوا أنفسهم للقتل.

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) فسيحوا في الأرض أربعة أشهرٍ واعلموا أنكم غيرُ معجزيِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَدَاءًا فَأْتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا  
وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ  
فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ  
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا  
ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَاتَوَا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي  
دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)  
أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ  
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ  
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ  
وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. {١٥ التوبة}..

ويلحظ في هذه الآيات طابع الصرامة، دون التخلي  
عن مبدأ الالتزام بالعهود والمواثيق. وقد جاء نص الآية ٦  
وسط هذه الآيات الصارمة كبسمة وسط عبوس، ونسمة في  
ثنايا عاصفة. ودلت على أن القرآن الكريم لا ينسى هذه  
القسمة من قسماته حتى في أشد المواقف.

لقد تحكمت فى هذه الآيات ضرورة تصفية الموقف بعد سلسلة المعارك التى سمحت بسيادة الإسلام بإستثناء "جيوب" كان لابد من تصفيتها لأنه ليس من الحزم فى شىء ترك مثل هذه الجيوب التى يمكن أن تتضخم مع الزمن وتصبح خطراً داهماً على استقرار البلاد.

من أجل هذا يكون للصرامة ما يبررها، كما يدل على أن هذه الصرامة إنما هى ضرورة لإجراءات وقائية لتأمين مستقبل البلاد. بمعنى أنها لحظت دواع خاصة واستثنائية وقد شرحنا عمق العداوة التى يكنها المشركون واليهود والمنافقون للإسلام وأنهم لا يرقبون إلا ولا ذمة ومع هذا فباب التوبة مفتوح دائماً، ولو تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فهم "إخوانكم فى الله" وليس من سماحة، وحرص على إتاحة بدائل ومندوحات عن القتال مثل هذا..

أن سورة القتال.. هى نفسها سورة "التوبة".

وتتواصل الآيات القارعة، الصاعقة التى بدأت بها وتوجه الحديث إلى المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. {آية ٢٣}..

وتضعهم أمام خيارين: ما يقضيه الإيمان من تضحية، وما يصطحب بالدنيا من ملاذ. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ

تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ». {الآية ٢٤}..

ويرتفع السياق حتى يصل إلى قمته في الآية {٢٩}..  
﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ  
مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

نحن هنا أمام آية جاءت بوصف انفردت به، ولم يرد  
في المصحف بهذا الصدد إلا هذه المرة فضلاً عن أنه إذا فهم  
أنه ممارسة أو مبدأ، فإنه يخالف ما تضمنته آيات عديدة عما  
يتبع في مثل هذا الموقف كما أنه يخالف الوقائع المادية لما  
حدث أيام الرسول والخلفاء الراشدين.

والنص الذى جاء به هذا التعبير، نص نعجز عن  
التوصل إلى مفهومه الحق، وليس لدينا فى الصحيح الثابت  
تفسيراً له من الرسول.. فالآية تتحدث عن فئة من أهل  
الكتاب لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا تحرم ما حرمه  
الله، ورسوله، ولا يدينون دين الحق، ونحن نعرف أن أهل  
الكتاب سواء كانوا من اليهود أو النصارى يؤمنون بالله  
ويؤمنون باليوم الآخر، كما أنهم يحرمون ما حرم الله من قتل  
أو زنا أو سرقة، ومن ثم فيبدو أن هناك فئة شاذة ينطبق عليها

وصف القرآن، ويفترض أن تكون هذه الفئة قد نصبت نفسها لعداوة الإسلام، وأبدت استكباراً تطلب مقاتلتها ودفعها الجزية بشيء من الصغار.

ولا يمكن القول أن المقصود بهذه الفئة هو التحريف الذى أقحم على الكتب المقدسة لأن التحريف كان فى تكييف صورة "الله" وليس عدم الإيمان بالله وقد تقبل القرآن كل الملل والنحل على ما هى عليه، ونهى أن يجادلهم إلا بالتي هى أحسن، وأمر المؤمنين. ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ بل أمر أن نقول ﴿وَالِهَنَا وَالْهَكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. وأمر بالقسط والعدل فيهم ما لم يقاتلوا المسلمين. وعندما جاء وفد نصارى نجران أكرمهم الرسول وأنزلهم بالمسجد ليقيموا صلواتهم.

وقد أخذ الرسول الجزية، ولم يصطحب أبداً أخذها بصورة من صور الصغار بل إن الإسلام خفف منها، ورفض أن تؤخذ من الصبيان والنساء والرهبان.

لا يتفق هذا الحكم الوقائع التاريخية الثابتة أن معالجة الإسلام للممارسات القديمة كانت تتسم بسمة من التقدم سواء فى ذلك الرق، أو المرأة، أو العلاقة بين العامل وصاحب العمل والعلاقة بين الحاكم والمحكوم وكذلك أحكام القتال..

ويؤكد هذا أن الخلفاء الراشدين عندما فرضوا الجزية على الروم لم يقتروا ذلك بصغار، بل كان الأهلون شاكرين

للمسلمين تسامحهم الذى لم يجذوه من الفرس أو البيزنطيين (٨).  
ومن أمثلة ذلك:

كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حين دخل  
الفرات وأوغل فيه.. هذا كتاب من خالد ابن الوليد لصلوبا بن  
نسطونا وقومه. إني عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذمة  
والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا. كتب سنة أثنى  
عشرة فى صفر.

وكتب أهل ذمة العراق لأمرء المسلمين: "إنا قد أدينا  
الجزية التى عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأميرهم البغى  
من المسلمين وغيرهم".

ولما بلغ أبا عبيدة أن الروم قد جمعوا جموعهم، ورأى  
أن ينسحب من بعض البلاد التى أخذت منها الجزية كتب إلى  
عماله بالشام أن يردوا على أهلها ما أخذوه منهم، وكتب إليهم  
أن يقولوا: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من  
الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على  
ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط،  
وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم. فلما قالوا لهم ذلك

---

(١) أن ما جاء فى كتب التفسير، وما نسب بعضه إلى عمر بن الخطاب  
أو الصحابة هو محض هراء - ومما دس على الإسلام فى تلك  
الفترة المظلمة التى هبطت فيها قيمة الإنسان - مسلم أو غير  
مسلم - إلى الحضيض وتعرضت الشعوب لإذلال الحكام.

وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا: "ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقى حتى لا يدعوا شيئاً".

وكتب عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب "هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أنربيجان: سهلها وجبلها وحواشيها وشغارها وأهل ملها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وملهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ومن حشر منهم فى سنة (أى جند) وضع عنه جزاء السنة ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك.."

فهذه الوقائع التاريخية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين تستبعد تماماً إلحاق أى صغار بالذميين عند أخذ الجزية. وفيما نرى فإن الآية لا تشير إلى فئة معينة وجدت أيام الرسول، ولكنها تتحدث عن فئة ستظهر فى المستقبل من تلك الفئات الشاذة عن الأديان السماوية، كالقراطة وغيرهم من حفلت بهم كتب الملل والنحل وأقترف الكثير منها المنكرات والفظائع بحيث يكون دفعهم الجزية عن يدهم صاغرون عقاباً عادلاً. ومعروف بالطبع أن القرآن هو للمستقبل كما هو عن الماضى.. وقد لا يقتصر ذلك على هذه الآية وحدها، لأن سورة التوبة كما سنذكر استشرقت عالم الإسلام بعد أن يفضى الرسول إلى ربه وتبدأ الفتن..

وتمضى الآيات بالسياق القوى للسورة.. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. وهو ما يصدقه انتشار الإسلام رغم كل المعوقات حتى في الدول الأوروبية والأمريكية والتي لو أحسن المسلمون عرضه لآمن به الكثيرون" وتقرع الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. {٣٩}.. وتذكر الآيات للمسلمين كيف نصر الله رسوله ﴿تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. {٤٠}..

وتعاتب الآية الرسول لأنه عفا عن المتخلفين قبل أن يتبين أمرهم وتتضح سريرتهم وتتكشف مؤامراتهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمْ

الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتِغَوْا  
 الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ  
 اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا  
 فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِيبَكَ  
 حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ  
 قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ..

وحددت الآيات فصائل هؤلاء المنافقين فمنهم من يقول  
 "إئذن لي ولا تفتني" ومنهم من يهمز الرسول في الصدقات،  
 ومنهم من يقول هو أذن ويزعمون مع هذا أنهم من  
 المؤمنين. ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ  
 أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ  
 كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ  
 كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. {٦٦} ..

لا عجب أن تأتي الآيات...

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ  
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ  
 قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ هُمَا بِمَا لَمْ يَنْبَلُوا وَمَا  
 نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ

خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ. {٧٤}..

ومع شدة نبرة الآيات، فإنها استخدمت "تعبير جاهد،  
وليس قاتل، وكذلك "أغظ عليهم فإن الإغلاظ له بالطبع حدوده.

ونهد آيات النبي عن الاستغفار للمشركين أو أن يصلى  
عليهم أو أن يقف على قبورهم لأن المقام ليس مقام صلح  
ومغفرة، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ  
وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَاءَ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ  
الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ  
وَعَدَاهَا آيَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ  
حَلِيمٌ. {١١٤}..

وتلاحق السورة المنافقين حتى الآية التي تسبق  
الأخيرة منها. ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ  
زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ  
يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا  
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ  
يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ  
يَذْكُرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ..

حتى تنتهى السورة نهاية وادعة. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ..

\* \* \*

كان بعض الصحابة يطلق على سورة التوبة "الفاضة" لأنها فضحت فصائل ومعسكرات المنافقين وكشفت ما يسرون وبينت ما يضمرون من عداوة للإسلام ولما كانت من السور الأخيرة فكأنها أرادت تأمين مستقبل الأمة وتبصيرها بأعدائها الداخليين الذين قد يكونون أشد خطراً عليها من الأعداء الخارجيين.. والسورة دراسة نفسية عميقة قدر ما هي استعراض اجتماعي دقيق للمجتمع الإسلامى وقتئذ وما اصطحب نجاحه من مخاطر مضمرة لا بد أن تعالج بكل حسم وقوة. ومن يستعرض التاريخ الإسلامى ما تعرض له الإسلام فى أعقاب وفاة الرسول عندما ارتدت العرب كلها وتضرمت الأرض ناراً، وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة" وكاد أهل مكة أن يرتدوا ولم تبق فئة مؤمنة صامدة إلا بالمدينة، وأن لولا عزم وحسم أبى بكر

وسياسته التي كانت تطبيقاً لآيات الشدة في سورة التوبة، لما قامت للإسلام قائمة. ولاستطاع المشركون أن يعودوا بالعرب إلى جاهليتهم مرة أخرى.

في ضوء تلك السنوات الحرجة الفاصلة من نزول السورة في حجة الوداع حتى وفاة الرسول ومداهمة الردة بأحداثها الرهيبة. يمكن تفهم شدة آيات السورة والطابع الخاص الذي شملها كلها تقربت بل ويمكن القول أن لسورة التوبة أثر في حسم أبي بكر والمسلمين الذين وقفوا معه أمام طوفان المرتدين وسلخوا إزاءهم مسلك الشدة التي تطلبتها تلك الأزمة الحالقة التي هددت بزوال الإسلام.

بل يمكن أكثر من هذا القول أن سورة التوبة تعبر عن فترات الشدة أو المحن التي تحيق بالمجتمع الإسلامي في بلد ما في تاريخ ما. وهي ترسم السياسة التي يجب أن تتم في هذا الحال المتربح بشكل عامة فإنها وتوجب الحسم، لأن الموقف يتطلبه، وهو السر في أن الآية رفضت اجتهاد الرسول في الصفح والسماحة مع المنافقين لأنهم قد يفهمون هذا على أنه ضعف.

باختصار إنها تقدم دروساً يجب أن تتبع عندما تهب العواصف وتتقلب القلوب وتتداولها الأحن والمحن وتتمر بأزمات متلاحقة.. تتطلب سياقاً وحسماً أعلى وأشد مما يتبع عادة.

ومع هذا فإن السورة لم تجاور الخطوط العامة لآيات القتال، لأن نبرة الحسم هي من أساسيات الحديث عن القتال وهي موجودة في كل الآيات. الجديد أن السورة كلها تقريباً عنيت بشرح سرائر ونوايا المنافقين وسياسات المشركين. ولم تأت - باستثناء تلك الإشارة الوحيدة عن إعطاء الجزية عن يدهم صاغرون. وقد أوضحنا أنه لا يمكن استخراج حكم منها لأننا لا نعلم ملابساتها بالدقة.

\* \* \*

بعد سورة التوبة تترى السور المكية يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنمل، والإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء.. وكلها سور طويلة رائعة، صادعة، ولكنها لا تتضمن قتالاً حتى تأتي سورة الحج المدنية وهي السورة التي نزلت فيها أول آية سمحت بالقتال وأذنت للمسلمين به.

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَئِنْ صُرْنَا لِلَّهِ مِنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَاهُمْ فِي

الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا  
عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. {الحج ٤١}..

هذه هي أولى الآيات إذنا بالقتال. وقد بنت هذا الأذن على أن ظلم المشركين قد بلغ مداه، وأن الله قد مكن للمسلمين بما يكفل النصر، كما تبني الآية هذا القتل على أساس المبدأ الأصولي في المجتمع البشري، مبدأ التدافع وأنه لولا هذا المبدأ لهدمت دور العبادة لكل الأديان وختمت الآية أجمل ختام عندما صورت المنتصرين. ﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. {الحج ٤١}..

وتتوالى السور المكية مرة أخرى: المؤمنون، والفرقان، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، حتى تأتي سورة الأحزاب التي نزلت بمناسبة إحدى المجابهاة العسكرية بين المسلمين والمشركين عند تحالف هؤلاء مع بقية مشركى العرب واليهود.. فتحدثت عن المنافقين الذين تملكهم الروح، كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بألسنة حداد. وفي الوقت نفسه فإن السورة قلدت المؤمنين الصادقين إحدى فلاندها. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْنُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ .. {الأحزاب}..

باستثناء هذه السورة، تترى السور المكية فاطر، ويس، والصفات، وص، والزمر، وغافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف دون إشارة إلى قتال.

في سورة محمد نجد نصاً تضمن حكماً هاماً من أحكام القرآن يحدد مصير الأسرى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بِعَدُوِّ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. {٤ محمد}..

وهذه الآية تمثل نظرية الإسلام عن القتال وخصائصها المميزة مثل الدخول فيه بجدية وعزيمة، فإنها الحرب..

"فضرب الرقاب" حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق. هنا حكم الرحمة بعد القسوة الأولى. ثم يأتي تحديد مصير هؤلاء الذين أنقذوا من القتل ليصبحوا في الأسر " فأما منا بعد. وأما فداء.."

هذا حكم طبقه الرسول في غزواته، ولكنه كان أكثر "تقدمية" مما تسمح به ظروف المجتمع، فلم يستطع المسلمون ولم يحتفظوا بهذه القاعدة الإنسانية ما بين "المن أو الفداء" فإذا لم يمكن المن فالفداء... وحتى الآن تظل الآية ذات طابع مثالي لأن قصارى ما وصل إليه العصر الحديث هو "تبادل الأسرى" أما المن فهذا ما لا نجده في قوانين البشر.

كذلك تضمنت سورة الحجرات نصاً عن التصرف عندما تشتجر العداوة والحرب بين فئتين من المؤمنين. ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَنْفُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ { الحجرات }..

يلحظ أولاً أن الآية لم تستبعد أن يحدث قتال بين طائفتين من المؤمنين وقد كان يرجى أن لا تصل العداوة بين طائفتين من المؤمنين حد القتال. ولكن "ما كل ما يتمنى

المرء يدركه" وما دام القرآن يعالج المجتمع البشرى بما فيه من قصور، فلا بد من التسليم بإمكانية حدوث هذا. وحددت الآية الإجراءات فأوجبت الصلح بينهما فإذا بغت إحداهما على الأخرى، وجب قتال الباغية فإذا فاءت إلى أمر الله فيصلح بينهما بالعدل، لا بالانتقام أو الثأر، ووجهت الآية النظر إلى أن المؤمنين رغم تقائلهم أخوة "فأصلحوا بين أخوانكم" ..

لقد شرحنا الآية في إحدى الكتيبات التي أصدرها الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل تحت عنوان "محكمة العدل الإسلامية الدولية" محكمة الآية ٩ من سورة الحجرات.

تعود الآيات المكية مع سورة ق الرائعة، والذاريات، والطور، والنجم، والواقعة، حتى نجد أخيراً "سورة الحشر المدنية" التي نزلت بعد الأحزاب وتضمنت قواعد تقسيم الغنائم، وهذا الحديث الرائع عن الأنصار.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. {٩ الحشر} ..

كما تضمنت السورة وصفاً لليهود لعله لا يزال عالقاً

بهم.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾. {١٤ الحشر}..

بعد سورة الحشر تأتي سورة الممتحنة ذات الأهمية الخاصة لأنها تضمنت تحديداً للعلاقات مع الآخرين. وهؤلاء الآخرين إما أن يكونوا من المتأمرين على الإسلام أو من الذين وقفوا موقفاً سلبياً، فلم يشتركوا في تأمر أو إيذاء أو فتنة أو إخراج من بلادهم مما يجعل السورة "امتحاناً" لا للمهاجرات، كما هو الشائع - ولكن بالنسبة لهاتين الفئتين الكبيرتين لقد نهت السورة عن موالاته أعداء للرسول يضمرون العداوة للإسلام.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ

يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ  
الْحَمِيدُ». {٦ الممتحنة}..

والآيات على صرامتها تمثل المسلك الأمثل مع هؤلاء  
الأعداء.. وأى مسلك آخر لابد وأن يتضمن نفاقاً ورياء  
ومداينة واختياناً لحق العقيدة. والأمر بعد هذا سلبي. فهو لا  
يرتب فعلاً إيجابياً، ولكن عدم موالة.

ومع هذا كله فقد تحفظت الآية ٧ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ  
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ﴾. فلا يفترض أن يتضمن عدم الموالة شتانا من  
العداوة.

ثم تحدد الآية الثامنة الموقف من الآخرين المسالمين  
وتضع المبدأ الحاكم.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ  
يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الْمُقْسِطِينَ﴾.

تضمنت سورة التحريم المدنية نصاً يأمر بأن النبي ﴿يَا  
أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَبئسَ المصير﴾. {٩ التحريم}..

ويلحظ أن القرآن استخدم تعبير "جاهد" وليس قاتل..  
ولذلك جاء "وأغلظ عليهم" مما يوحي أن هذا الجهاد وأن  
تضمن الشدة والغلظة فإنه لا يتضمن قتالاً ولا بد أن هناك  
أسباباً خاصة تطلبت ذلك، لأن المعروف عن الرسول هو  
اللين والدعة والبعد عن الغلظة والشدة.

والسور بعد هذا مكية لا أثر فيها لقتال باستثناء نبوءة  
في سورة المزمل وهي من أولى سور القرآن الكريم بما  
سيحدث في المستقبل من قتال ﴿.. عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ  
مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ  
وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ {آية ٢٠}.

\* \* \*

يتضح من هذا الاستقصاء للآيات التي جاءت عن  
القتال بين دفتي المصحف. ومن سورة البقرة حتى سورة  
الناس أنها محدودة العدد لا تشغل سوى حيز ضئيل إذا قيس  
بالمساحة الكبيرة للتوجيه الخلقى والهدى الإلهي الذي هو  
مادة القرآن لحمته وسداه، ولا تعد شيئاً أمام مشاهد القيامة أو  
الأمثال التي لا حصر لها التي ضربها القرآن لأنماط من  
الناس المؤمنين والكافرين، والمنافقين الخ... ومسالكهم في  
سراء الحياة وبأسائها، وهي لا تعد شيئاً مذكوراً أمام ما جاء  
عن اليوم الآخر.. أو عن الأحاديث عن الكون والطبيعة،  
وقصص الغابرين الخ...

وقد تصورنا عندما عزمنا على إيراد كل ما جاء عن أحكام القتال في المصحف أن ذلك سيستغرق ستين أو سبعين صفحة لما ترسب في الذهن عن الأهمية المذاعة عن الموضوع وعن إشادة القرآن به. ولكن ثبت أن كل ما جاء عن أحكام القتال، قرابة خمس عشرة صفحة.

وتتناقض هذه الحقيقة، أعنى ضالة المساحة التي تشغلها أحكام القتال في القرآن الكريم مع غزارة الحديث عن القتال في الفقه، وتاريخ الرسول حيث تشغل الغزوات المساحة الكبرى من السيرة، الأمر الذي أزعج فريقاً من الباحثين المعاصرين، وأثار حيرتهم، وإن كان تبريرها ليس عسيراً. فإن سياسات ومسالك وتصرفات الرسول ذهبت بها كتب الفقه التي اعتبرت أنه يدخل في السنة كل فعل، أو قول، أو تقرير، من الرسول، فلم يعد لكتب التاريخ إلا الجانب السياسي الذي تمثل الغزوات أبرز قطعة فيه، وعلى هذا فالذي يريد أفضية وأفعال وأقوال الرسول ﷺ فإن عليه أن يرجع إلى كتب الحديث والفقه وليس إلى السيرة.

## الفصل الخامس

### الجهاد في السنة ولدى الفقهاء

١

اعتمدنا فيما سبق من فصول في الحديث عن الجهاد والقتال على القرآن الكريم لأننا نؤمن أنه الأصل الأصيل للإسلام ومع هذا فنحن نؤمن أيضاً أن للسنة دوراً في تبليغ القرآن وتبيينه.

لقد عرضنا رأينا في السنة ومكانتها في الشريعة في مناسبات عديدة للغاية، وخصصنا الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" بأسره للسنة.

وجملة الرأي يمكن إيجازه في الآتي:

١. نحن نؤمن أن السنة هي الأصل الثاني بعد القرآن وفكرة الاقتصار على القرآن الكريم دون السنة مستبعده تماماً ولا يمكن التفكير فيها - فضلاً عن الأخذ بها.

٢. أن فشو الوضع، والحديث بالرواية وما يلحق الأحاديث نتيجة للسهو أو خطأ الفهم الخ... مما أساء إساءة بالغة إلى السنة. لا ينفى وجود أحاديث تمثل فصل الخطاب وجوامع الكلم وتشع نوراً وهدى، بل أكثر من هذا فإننا نقول إن السنة ليست إرثاً خاصاً للمسلمين يتصرفون فيها

كما يشاعون لأنها إرث للبشرية كلها ما دام الرسول رسولاً للعالمين وعلى المنكرين للسنة أن يعرفوا قدرهم فلا يجاوزوه.

٣. مع هذا فلا بد من التنبيه إلى أن الأصل الأول هو القرآن، والسنة تابعة له مقيدة به والرسول لا يستطيع أن يزيد في القرآن حرفاً أو ينقص حرفاً أو يبدل حرفاً فالسنة تبع للقرآن ومحكومة به.

٤. تنشأ بالنسبة للسنة قضية لا تنشأ للقرآن هي قضية الثبوت. لأن السنة لم تدون إلا بعد مائة سنة من الهجرة بأمر الخليفة عمر بن العزيز فيما قيل.. ولهذا فشا الوضع والرواية بالمعنى الخ... وقد بذل أئمة الحديث جهوداً جبارة ونزلوا بمئات الألوف من الأحاديث إلى عشرات الألوف، لكن اتسع الخرق على الرائق. ويرى الفقهاء أن ما وصل إليه المحدثون القدامى هي الغاية التي لا يمكن الإضافة عليها فقد ميزوا بين الأحاديث صحيحها وسقيمها وأنزلوا الرواة منازلهم ما بين ثقات ووضاع.. الخ... وحسماً للخلاف فإننا نقول إن القضية ليست قضية آحاد أو تواتر، حسن أو ضعيف ولكنها أولاً وقبل كل شيء الاتفاق مع القرآن الكريم إذ يفترض أن تتفق الأحاديث معه فإذا شذ حديث فعندئذ يكون الخيار هو ما بين القرآن والسنة ونحن لا نتردد في الأخذ بالقرآن.

وقد وضعنا فى كتابنا عن السنة أثنى عشر معياراً من القرآن الكريم يفترض تجاوب السنة معها.

٥. بالإضافة فنحن نرى أن السنة ليس لها تأييد القرآن لأن القرآن الكريم عندما لم يذكر إلا الكليات فإنما كان ذلك لأنه لا يريد التأييد إلا لهذه الكليات ولو أرادها للتفاصيل والجزئيات لذكرها. وعندما وكل للرسول إيضاح التفاصيل والجزئيات فإنه أراد لها أن تستمر ما ظلت صالحة، متوائمه مع التطور. أما إذا جاوزها التطور فعندئذ نعود للقرآن لنستلهم منه الحكم المطلوب لأن ما جاء به الرسول من سنة إنما كان عن طريقة "وحى سنى" يختلف عن الوحى القرآنى. ولأن الله تعالى لم يرد للرسول أن يكون مشرعاً كالله، وإنما يمكن أن يضع أحكاماً لا بد أن تلحظ الظروف الزمانية والمكانية لها. ولا يكون لها إطلاق أو تأييد القرآن.

ومعلوم أن الفقهاء ذهبوا إلى أن جزءاً كبيراً من أحكام الرسول لا تعد تشريعاً..

\* \* \*

هذه هى آراؤنا فى السنة. وقد تتضح وجاهتها عند مقارنة الآيات التى استشهدنا بها فى الفصول السابقة بالأحاديث عن الجهاد - سواء كان جهاداً أو قتالاً. ففى حين

جاءت كل الآيات عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقصورة على الأمر. جاء الحديث المشهور ليضيف التغيير باليد، أو باللسان أو بالقلب، وعلى حين جاءت كل الآيات عن القتال على أساس درأ الفتنة أو صد العدوان أو الانتصاف من الإخراج من الأرض الخ... وعلى عدم المساس "بالذين لم يخرجوكم من دياركم" فإن الأحاديث التي سترد يوحى بعضها بالقتال لنشر الإسلام ولحمل الناس على الإيمان.. حقيقة أن هناك آية أو إثنين لهما طابع الإطلاق ولكن لا بد أن لهما حكما خاصاً لأن كل الآيات الأخرى تقيد القتال بما أشرنا إليه من دواعي وتجعلها دفاعية..

كما يلحظ ذلك في الأحاديث عن المرأة، فإنها تأثرت بواقع المرأة، وظروف المجتمع العربى وفى الحقيقة فإن الأصل فى السنة - خاصة ما يمس قضايا المجتمع - هو التلاؤم مع أوضاع المجتمع، لا بمعنى التسليم لها، لأن الإسلام جاء لتغيير وإنهاض، ولكن أن تتم عملية التغيير والنهضة فى الأطر وبالمدى الذى تسمح به حالة المجتمع.

وفى حرية العقيدة يكرر القرآن أن لا إكراه فى الدين، وأن لا عقوبة دنيوية على من يرتد عن دينه فى حين نص حديث بطريقة حاسمة "من بدل دينه فاقتلوه" وهو فى صحيح البخارى.

من هنا فليس من العجيب أن يكون تركيز معظم الأحاديث عن الجهاد هي عن القتال. لأن الأحاديث عن المعاني الجهادية العامة توزعت على مختلف أبواب الفضائل. وأصبح المقصود بالجهاد هو القتال وهو تطور لم يكن منه مناص بعد أن شغل القتال مساحة كبيرة في الحقبة المدنية.

\* \* \*

في ضوء هذه التحفظات نورد ما جاء من الأحاديث عن القتال نقلاً عن الإمام الشهيد حسن البنا في رسالته "الجهاد".

١. عن أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والذى نفسى بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله، والذى نفسى بيده لو ددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل" رواه البخارى ومسلم.

السرية: القطعة من الجيش لا يكون فيها القائد العام.

٢. عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "والذى نفسى بيده لا يكلم أحد فى سبيل الله والله أعلم من

يكلّمُ فى سبيله إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم والريح ريح المسك".

الكلم: الجرح. ويكلم: يجرح.

٣. وعن أنس رضى الله عنه قال: غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد فقال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾. إلى آخر الآية رواه البخارى.

من دون أحد: أى من جهة جبل أحد.

٤. وعن أم حارثة بنت سراقه، أنها أتت النبى ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثنى عن حارثة - وكان قبل يوم بدر

أصابه سهم غرب - فإن كان فى الجنة صبراً وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء. قال: يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة، وإن أبئك أصاب الفردوس الأعلى" أخرجه البخارى.

السهم الغرب: الذى لا يُعرف راميه.

اجتهدت عليه فى البكاء: بكيت بكاء شديداً.

فأنظر يا أختى كيف كانت الجنة تتسيهم المصائب وتحملهم على الصبر عند المكاره.

٥. وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" أخرجه الشيخان وأبو داود.

٦. وعن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من جهز غازياً فى سبيل الله تعالى فقد غزا، ومن خلف غازياً فى سبيل الله بخير فقد غزا" رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى.  
أى: له أجره.

٧. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصدقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه فى ميزانه يوم القيامة" رواه البخارى.

ومثل الفرس كل عدة فى سبيل الله.

٨. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: لا تستطيعونه. ثم قال: "مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد" الستة (٩) إلا أبو داود.

٩. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو ظهر بعيه أو على قدمه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله تعالى لا يرعوى بشيء منه" رواه النسائى.

لا يرعوى: أى لا ينكف ولا يتعظ ولا ينجر.

١٠. وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول "عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى" الترمذى.

---

(١) كتب الحديث الستة هى: البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه والترمذى وأبو داود.

١١. وعن أبي عميرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن أقتل في سبيل الله أحب إلي من أن يكون لى أهل المدر والوبر" أخرجه النسائى.  
أهل المدر والوبر: أى أهل الحواضر والبوادى.

١٢. وعن راشد بن سعد رضى الله عنه عن رجل من الصحابة أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ فقال: "كفاه ببارقة السيوف على رأسه فتنة" أخرجه النسائى.

وهذه امتيازات الشهيد فى الموقعة، وكم له من امتيازات كهذه ستأتى بعد..

١٣. وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما يجد الشهيد من مسّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة" الترمذى والدارمى، وقال الترمذى حسن غريب.

١٤. وهذا امتياز آخر للشهيد..

١٥. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غزا فى سبيل الله فانهزم أصحابه، فعلم ما عليه فرجع حتى أريق دمه، فيقول الله للملائكة: انظروا إلى عبدى

رجع رغبة فيما عندي وشفقاً مما عندي حتى أريق  
دمه، أشهدكم أني قد غفرت له".

شفقاً: خوفاً. وأريق دمه: سال دمه.

١٦. وعن عبد الخير بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه  
عن جده قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ يقال لها  
أم خالد وهي منتقبة تسأل عن ابن لها قتل في سبيل  
الله تعالى، فقال لها بعض أصحابه. جئت تسألين عن  
ابنك وأنت منتقبة. فقالت: إن أرزأ ابني فلن أرزأ  
حيائي. فقال لها النبي ﷺ: "إن أبناك له أجر شهيدين"  
قالت ولم؟ قال: "لأنه قتله أهل الكتاب" أخرجهما أبو  
داود.

أرزأ ابني: أفقده وأصاب فيه.

وفي هذا الحديث إشارة إلى وجوب قتال أهل الكتاب،  
وأن الله يضاعف أجر من قاتلهم، فليس الجهاد للمشركين فقط  
ولكنه لكل من لم يسلم.

١٧. وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ  
قال: "من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله  
منازل الشهداء وإن مات على فراشه" أخرجه الخمسة  
إلا البخارى

١٨. وعن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: "من أنفق نفقة في سبيل الله تعالى كتبت له بسبعمائة ضعف" رواه الترمذى وحسنه، النسائى.

١٩. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: "لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة، أغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة" رواه الترمذى.

٢٠. عيينة: عين صغيرة تفيض بالماء.

٢١. وعن المقدم بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: "للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعه، ويرى مقعده فى الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سبعين من أقربائه" رواه الترمذى وابن ماجه.

٢٢. وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلثة" رواه الترمذى وابن ماجه.

٢٣. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من طلب الشهادة صادقاً أعطوها ولو لم تصبه" رواه مسلم.

٢٤. وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: "من رابط ليلة فى سبيل الله سبحانه وتعالى كانت كآف ليلة صيامها وقيامها" رواه ابن ماجه.

٢٥. وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "غزوة فى البحر مثل عشر غزوات فى البر، والذى يسدر فى البحر كالمشطح فى دمه فى سبيل الله سبحانه" رواه ابن ماجه.

٢٦. يسدر: يميل ويهتز وترتج به السفينة. وفيه الإشارة لغزو البحر ولفت نظر الأمة إلى وجوب العناية بحفظ سواحلها وتقوية أسطولها، ويقاس عليه الجو فيضعف الله للغزاة فى الجو فى سبيله أضعافاً مضاعفة.

٢٧. وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يقول: لما قتل عبد الله بن عمرو بن حزام يوم أحد قال رسول الله ﷺ: "يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل

لأبيك؟ قلت: بلى، قال: ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحاً فقال: يا عبدى تمن على أعطك. قال يا رب تحيينى فأقتل فيك ثانية. قال: إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأبلغ من ورائي. فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. رواه ابن ماجه.

٢٨. وعن أنس عن أبيه رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "لأن أشيع مجاهداً فى سبيل الله فأكففه على رحله غدوة أو روحه أحب إلى من الدنيا وما فيها" رواه ابن ماجه.

٢٩. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "وفد الله ثلاثة: الغازى والحاج والمعتمر" رواه مسلم.

٣٠. عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: "يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته" رواه أبو الدرداء.

٣١. عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا تبايعتم بالنسيئة وأخذتم أذنان البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم" رواه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم.

٣٢. وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: "أنطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: "قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض" قال عمير بن الحمام: بخ بخ، فقال رسول الله: "ما يملكك على قولك بخ بخ" قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل" رواه مسلم.

٣٣. عن أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم. فخرج إليهم من المسلمين مثلهم وأكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم فصاح الناس وقالوا سبحان الله يلقى بيده إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: أيها الناس أنتم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ، إن أموالنا قد ضاعت وإن الله تعالى أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى على نبيه ما

يرد علينا ما قلناه ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. وكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركتنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم. رواه الترمذى.

٣٤. وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق" رواه مسلم وأبو داود ونظائره كثيرة.

والأحاديث الشريفة فى ذلك وأمثاله، وفى غزو البحر وتفضيله على غزو البر بمرات وفى غزو أهل الكتاب" انتهى الاستشهاد من رسالة الجهاد.

وكما قلنا فإن هذه الأحاديث يجب أن توضع فى الإطار القرآنى الواسع الذى يقر التعددية، ويفترض وجود الاختلاف، ويفرض حمايته ورعايته على الأديان الأخرى... مما يكون ضابطاً لبعض الأحاديث وقاضياً على البعض الآخر خاصة وأن فيها ما لا يرقى لمستوى الصحيح..

ومن الخير أن نضيف إلى ما أورده الإمام البنا إشارة عن توصية الرسول لمعاذ بن جبل ولعلى بن أبى طالب وهما بمعنى واحد وأن اختلفت بعض الألفاظ فى الوصية لمعاذ بن جبل قال "لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبو فلا تقاتلوهم حتى يبدؤكم فإن بدؤكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ثم

أرهم هذا القتل وقولوا لهم هل إلى خير من هذا؟ فلأن يهدى الله على يديك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس.

وفى وصيته لعلى بن أبى طالب "إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا قتيلاً فلا تقاتلهم حتى تريهم إياه فتقول لهم هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله ولأن يهدى الله بك رجلاً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت".

ويبدو أن الإمام على بن أبى طالب تأثر بهذه الدعوة، فهو لم يحارب الخوارج الذين أسمعوه قوارص الكلم بل وتهددوه بالقتل ثم انحازوا بقضهم وقضيضهم إلى حروراء، فلم يحاربهم، بل ولم يمنعهم الفىء أو يحرم عليهم دخول المساجد، ولم يشرع فى حرب إلا بعد أن قتلوا بريئاً.. وأرسل إليهم بطلب قاتله قالوا "كلنا قتله" وعندئذ سار إليهم ولكن قبل القتال وعظهم فتنفرق كثير منهم، ولم يبق إلا قلته أصرت على القتال. وهؤلاء هم الذين قتلوا فى حروراء.

**فلئن كان المناط فى هذه التوصية هو الإيمان أو الكفر، فإن سبب القتال أصلاً هو سبق المشركين إلى القتل.**

وأوصى الرسول كل سرية بأن لا يقتلوا الأطفال أو النساء ولا عسيفا وهو المدنى الأجير الذى يعمل لكسب عيشه. وعندما أرسل أبو بكر يزيد بن أبى سفيان إلى الشام أمره "لا تقتلن امرأة، ولا صبياً، ولا كبيراً هرمًا. وأنك ستجد

قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى صوامع فدعهم وما  
زعموا...

## ٢

إذا انتقلنا من السنة إلى الفقهاء، فكأننا انتقلنا إلى روح  
العصر الذى حكم الفقهاء، وانتهت إليه المعارف الإسلامية  
نتيجة للاختلاط الثقافى والجنسى والمعرفى. ورواسب  
الحضارات الفارسية واليونانية الخ... وحتى لا نغرق فى  
الدوامة الفقهية والمذهبية، فإننا نجتزى ببعض ما أورده  
الإمام الشهيد فى رسالته عن الجهاد..

١. قال صاحب "مجمع الأنهر فى شرح ملتقى الأبحر" مقررأً  
أحكام الجهاد فى مذهب الأحناف: "الجهاد فى اللغة بذل  
ما فى الوسع من القول والفعل، وفى الشريعة قتل الكفار  
ونحوه من ضربهم ونهب أموالهم وهدم معابدهم وكسر  
أصنامهم، والمراد الاجتهاد فى تقوية الدين بنحو قتال  
الحرييين والذميين إذا نقضوا والمرتدين الذين هم أخبث  
الكفار، للنقض بعد الإقرار والباغين. بدءاً منا فرض  
كفاية، يعنى يفرض علينا أن نبدأهم بالقتال بعد بلوغ  
الدعوة، وإن لم يقاتلونا، فيجب على الإمام أن يبعث  
سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة أو مرتين وعلى  
الرعية إعانته وإذا قام به البعض سقط عن الباقيين، فإذا  
لم تقع الكفاية بذلك البعض وجب على الأقرب فالأقرب،

فإن لم تقع الكفاية إلا بجميع الناس فحينئذ صار فرض عين كالصلاة، أما الفريضة فلقلوه تعالى ﴿فاقتلوا المشركين﴾. وقلوه عليه الصلاة والسلام "الجهاد ماض إلى يوم القيامة" وإن تركه الكل أثموا.. إلى أن قال: فإن غلب العدو على بلد من بلاد الإسلام أو ناحية من نواحيها ففرض عين، فتخرج المرأة والعبد بلا إذن الزوج والمولى، وكذا يخرج الولد من غير إذن والديه، والغريم بغير إذن دائنه.

وفى كتاب البحر: "امرأة مسلمة سببت بالشرق وجب على أهل المغرب تخليصها ما لم تدخل حصونهم وحرزهم" أ. هـ.

٢. وقال صاحب "بلغة السالك لأقرب المسالك فى مذهب الإمام مالك": الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى كل سنة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، ويتعين (أى يصير فرض عين كالصلاة والصوم) بتعيين الإمام وبهجوم العدو على محلة قوم، فيتعين عليهم وعلى من يقربهم إن عجزوا، ويتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة ولو منعهم الولي والزوج والسيد ورب الدين إن كان مديناً، ويتعين أيضاً بالنذر، وللوالدين المنع فى فرض الكفاية فقط، وفك الأسير من الحربيين إن لم يكن

له مال يفك منه فرض كفاية وإن أتى على جميع أموال المسلمين. أ. هـ.

٣. وفي متن المنهاج للإمام النووي الشافعي: كان الجهاد في عهد رسول الله ﷺ فرض كفاية وقيل عين، وأما بعده فللكفار حالان:

أحدهما - يكونون ببلادهم ففرض كفاية، إذا فعله من فيهم الكفاية من المسلمين سقط الحرج عن الباقيين.

والثاني - يدخلون بلدة لنا فيلزم أهلها الدفع بالممكن وإن أمكن تأهب لقتال وجب على الممكن حتى على فقير وولد ومدين وعبد بلا إذن.

٤. وفي "المغنى" لأبن قدامة الحنبلي قال: مسألة - والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقيين، ويتعين في ثلاثة مواضع:

أ- إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام.

ب- إذا نزل الكفار ببلدة تعين على أهله قتالهم ودفعهم.

ج- إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم معه..

وأقل ما يفعل مرة كل عام (١٠).

\* \* \*

وهناك حكم للجهاد لابن القيم أورده فى زاد المعاد وأعجب به الشهيد سيد قطب وجعله أساس فكرته عن الجهاد وأورده فى "معالم الطريق" وفى الضلال وهو "نقلاً عن معالم الطريق".

"لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد فى الإسلام فى "زاد المعاد" فى الفصل الذى عقده باسم: "فصل فى ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجل" أول ما أوحى به الله تبارك وتعالى، أن يقرأ باسم ربه الذى خلق، وذلك أولى نبوته، فأمره أن يقرأ فى نفسه "فأنذر" فنبأه بقوله: "اقرأ" وأرسله بـ: "يا أيها المدثر"، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح. ثم أذن له فى الهجرة وأذن له فى القتال. ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين

---

(١) اعتمدنا فى الأحاديث وأقوال الفقهاء على ما أورده الإمام الشهيد حسن البنا فى رسالة الجهاد - أنظر مجموعة رسائل الإمام الشهيد ص ٢٤٦ وما بعدها (طبع دار النشر والتوزيع الإسلامى).

كله لله.. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:
أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.. فأمر بأن يتم
لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفى لهم به ما استقاموا
على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم
حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده..
ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها:
فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية. أو
يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين
والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين
بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ
عهودهم إليهم.. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسما
أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له،
فحاربهم وظهر عليهم. وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم
يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسما لم
يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن
يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.. فقتل الناقض
لعهده، وأجل من لا عهد له أو عهد مطلق، أربعة أشهر.
وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء
كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل
الذمة الجزية.. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على
ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.. ثم آلت
حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين:

محاربين وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.. وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرايرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمر أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهى أن يصلى عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم.. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين " أنتهى الاقتباس<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وهذا العرض لأقوال الفقهاء عن الجهاد يوضح أنهم فهموا من الجهاد القتال وأقاموا كل أحكام الجهاد على هذا الأساس، وانهم قد يكونون المسئولين بالدرجة الأولى عن إشاعة ذلك وقد ترتب عليه من نتائج أشرنا إليها فيما سبق. وقد يكون لهم - إلى حد وما - عذر لأن الأحاديث أيضاً ركزت على القتال.

ومقارنة كلمات الفقهاء بما جاء في القرآن الكريم يتضح أن هناك بوناً كبيراً، وإن كان لهم حق في إبراز

---

(١) معالم في الطريق سيد قطب - طبعة الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية (سنة ١٩٧٨) ص ٥٥.

القداسة الكبرى والأهمية العظمى للدفاع عندما تدهم البلاد بهجمات الأعداء.

أما فيما عدا هذا فالكثير يعود إلى روح عصر الفقهاء.. وما لا نجد أنفسنا في حاجة لمناقشته، لأننا لا نرى أنفسنا ملزمين به أصلاً ومناقشته تعد إهداراً للوقت الثمين.

وقد أدرك عدد من الفقهاء المعاصرين الخطأ الذى وقع فيه الأسلاف بتأثير عصرهم وأثبت بعضهم كالشيخ محمد أبو زهرة. والشيخ عبد الوهاب خالف. أن الإسلام يؤثر السلم على الحرب، ولا يرى فى القتال وسيلة لنشر الإسلام. وإنما كان القتال دفاعاً عن النفس وحماية العقيدة. كما ذهب إلى ذلك الإمام الشهيد حسن البنا. ولكن أحداً من دعاة الجماعات الشاردة لم يعن بذلك ولم يشر الشهيد إلى سيد قطب إلى أراء هؤلاء الفقهاء، ولا حتى إلى رأى الإمام البنا وإنما اهتموا بابن القيم، وابن تيمية وابن كثير الخ... وهذا فى الحقيقة مما يضاعف من مسؤوليتهم ويظهر أنهم فى اتجاههم هذا كانوا يخضعون لمؤثرات نفسية أكثر مما هى مبررات عقيدية.

## الفصل السادس

### القتال فى سبيل مثل أعلى

مع أن معظم الآيات القرآنية عن القتال إنما تنصب على الحرب الدفاعية، وأن حروب النبى ﷺ كانت أصلاً حرباً دفاعية، أو لتأمين العقيدة أو نتيجة لنقض العهد.. إلا أن ثمة علاقة خفية بين الإسلام وبين نوع من القتال، وجاذبية خاصة تجذب الإسلام لفكرة القوة. ويمكن للإنسان أن يستشف ذلك - استشفافاً من سياق بعض الآيات أو من نصوص صريحة - وإن كانت قليلة - كما يجده بكثرة وبغزارة فى السنة النبوية، وكانت هذه النزعة مسؤولة إلى حد كبير عن ظاهرة الفتوح الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين، تلك الفتوح التى كونت دولة الإسلام، والتى حارب فيها المسلمون بروح "جهادية" عالية وعمقوا فيها مبدء كسب إحدى الحسنين الشهادة أو الانتصار وأظهروا فيها البطولات التى يفخر بها المسلمون حتى اليوم.

**فكيف نعلل هذا، وكيف نجمع بينه وبين حرية**

**العقيدة؟.**

يمكن القول إنها أثر من آثار الطبيعة الجهادية للإسلام عندما عرض الحياة نزالاً ما بين الخير والشر. هداية الأنبياء وغواية الشياطين واختباراً وابتلاء بالسراء والضراء..

ويمكن أن نقول إنها نتيجة لنزعة تغليب القتال على الجهاد لدى الفقهاء..

ويمكن أن نقول إن هذه الظاهرة تعرض لنا حالة معقدة ومركبة يتلاقى فيها المبدأ بالمبدأ والمثل الأعلى بالمثل الأعلى فمبدأ حرية الاعتقاد هو الأصل والقاعدة، ولكن يحدث في بعض الحالات أن يظهر مبدأ يتطلبه التطور بالنسبة للظروف الخاصة أو الآنية مثل تحقيق العدل فيجعل التطور الأولوية لمبدأ تحقيق العدل ومقاومة الظلم. ومع أنه قد لا يكون هناك تعارض، ولكن هناك مناطق تماس كما قد يسمح بوجود تعارض مؤقت حتى تنتهي الضرورة التي فرضته، وهذه كلها ظواهر يفرضها فرضاً التعقيد الاجتماعي.

بالإضافة إلى تلاقى المبادئ، فيغلب أن يقترن هذا بتلاقى المجتمعات. فيظهر مجتمع شاب فيه كل عناصر القوة والحيوية والفعالية، أشبه بحصان جامح يريد أن ينطلق بينما تظهر بجانبه مجتمعات سائخة، طبقية، تقليدية، فقدت حيويتها منذ عهد بعيد. في هذه الحالة يكون طبيعياً أن يندفع المجتمع الجديد بكل حيويته، ليكتسح المجتمع الهرم القديم المتهاوى بالفعل.. لتنتصر المبادئ الجديدة ومجتمعاتها الجديدة على المبادئ القديمة ومجتمعاتها السائخة.

وعندما يحدث هذا فيمكن أن نقول إن هذا الصراع ما بين مجتمعات شابة قوية لها مبادئ سليمة مع مجتمعات

شائخة قديمة لها مبادئ باليه هو ما يطلقون عليه "صراع الحضارات".

والذى حدث أن المجتمع البشرى قبل ظهور الرسالة المحمدية كان يتخبط فى إفسار حضارات طبقية جائرة تسودها الجهالة والوثنية وقد كان أبرز طابع لهذه المجتمعات - الفارسية الرومانية - هو استعباد الجماهير والتحكم فيها إما بتزييف الرسالات السماوية السابقة التى جاءت لتحريرها، أو بتأليه الملوك والحكام أو بفرض الإصر والأغلال على الجماهير المحرومة بحيث عجزت هذه الجماهير عن أن تحرر نفسها، وأصبح من الضرورى أن يأتى التحرير من السماء رأساً فى صورة رسول يدعو لأن تحل شرعة المساواة محل شرعه الطبقية، شرعة الشورى محل شرعة الاستبداد، شرعة العدالة محل شرعة الظلم، شرعة العلم محل شرعة الجهل.. وأهم من هذا كله شرعة الله محل شرعة الطاغوت، لأنه فى هذه الصيغة "الله لا الطاغوت" تتبلور رسالة الإسلام.

لم يكن إلا العرب فى هذا الوقت ليقوموا بهذه الرسالة ولم يكن إلا الإسلام لتتمثل فيه هذه الرسالة.. وكان لا بد من تقويض أسس وهيكल النظام الجائر الفاسد الذى يستعبد الناس وإحلال نظام العدالة.. والشورى.

وقد أرسل الرسول خطاباته المشهورة إلى كسرى  
وقيصر ورفضها هذان بأبء وشمم فلم يكن من الممكن أن  
يتم هذا إلا بالحرب.. والقتال..

وهكذا ظهر "الجهاد فى سبيل الله".

**والجهاد فى سبيل الله قتال فى سبيل مثل أعلى  
يستهدف أمرين:**

**الأول:** إحلال نظام اجتماعى واقتصادى وسياسى  
صالح محل نظام اقتصادى وسياسى واجتماعى فاسد.. وهذا  
ما يتم بإسقاط النظم الفاسدة وإحلال نظم جديدة تقوم على  
العدل، والمنهجية وحكم القانون "أو كما يسميه الإسلام -  
الشرع" وأن يكون الناس أمام الفرص وفى المعاملة كأسنان  
المشط، ولا فرق بين غنى وفقير، نبيل وعامى، عجمى  
وعربى أسود وأبيض، ولم تكن الجيوش الإسلامية لتحارب  
فى الجنود أمامها كفاراً، ولكن حماة النظام الفاسد والقوة التى  
تعمل على بقاءه وتحول دون إحلال العدل الذى جاء به  
الإسلام.

**والشق الثانى:** التبشير بدعوة وعقيدة الإسلام، وهذا  
أمر لا يمكن إلزام الأفراد به، أو فرضه عليهم، ويجوز لكل  
واحد أن يرفضه، وأن يتمتع - فى ظل الحكم الإسلامى  
والعدل الإسلامى - بكافة حرياته الدينية - لقاء دفع ضريبة  
إضافية هى الجزية.

ذلك لأن الغرض الرئيسي من الجهاد فى الإسلام ليس هو حمل الناس قسراً على الإيمان بالإسلام، لأنه لو كان ذلك لما سمح ببقاء كل من يشاء الاحتفاظ بدينه ولما حما الكنائس، ولما أعطى القسيسين والرهبان نوعاً من الحصانة.

ولكن الجهاد الإسلامى استهدف فى هذا الشق التعريف بالإسلام وإعلام الناس أن هناك ديناً ونظاماً اسمه الإسلام يقوم على قواعده الخاصة الخ...

ولم يكن هذا ميسراً فى العهود القديمة، خاصة بعد رفض الملوك رسائل النبى - إلا بظهور الجيش الإسلامى والحكم الإسلامى دون أن يتضمن هذا بالضرورة مساساً قسرياً بحرية الاعتقاد. ولكن تطبيقاً لغرض أوجبته القرآن على المسلمين عندما جعلهم دعاة حضارة "لتكونوا شهداء على الناس".

وقد يرى البعض أن الضريبة الإضافية التى فرضت على الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم، ورفضوا الإيمان بالإسلام تمثل ضغطاً يخالف حرية الاعتقاد، ولكن الأمر فى حقيقة الحال عكس ذلك. إذ هى البديل الوحيد عن جعل هؤلاء الناس ينخرطون فى خدمة الحكومة الإسلامية التى لا يؤمنون بها، ولولاها لجاز أن يؤخذوا ليكونوا جنوداً فى الجيش الإسلامى وعندئذ يلزمون الدفاع عن عقيدة لا يؤمنون

بها. فالجزية هنا تمثل سبيلاً للاحتفاظ بالعقيدة وبديلاً عن القسر الذى لم يكن منه مناص نتيجة للتعقيد الاجتماعى وهى ليست ثمناً للحرية، ولكنها ثمن العدالة والحماية، وكانت هذه الصفقة رابحة للذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أكثر مما كانت رابحة للمسلمين. وقد سعد بها أصحابها على حساب المجتمع الإسلامى إلى درجة ساعدت - فيما بعد - على ظهور "الامتيازات" الأجنبية، وظهور مجتمعات منفصلة وشبه مستقلة داخل المجتمع الإسلامى.

وقد كان نظام الجزية من النظم المقررة. وقد دفع المسيح نفسه الجزية، وكانت لدى الرومان وغيرهم ثقلية وباهظة.

وفى الحقيقة، فإنه لم يكون هناك حل لهذه المعادلة الصعبة سوى ذلك، وقد نجد مثيلاً لها فى حالة رفض بعض العمال الانضمام إلى النقابة، مع تمتعهم فى الوقت نفسه، بالمزايا التى تكتسبها النقابة وتسرى على كل العمال، فى هذه الحالة يفرض على العمال الذين لا يريدون الانضمام إلى النقابة دفع "رسم انتفاع" ويسمى هذا النظام Agency Shop والجزية الإسلامية هى بدل الانتفاع هذا..

وقد كان الجهاد الإسلامى الأول بكافة المعايير، وعلى امتداد العصور، مما لا يمكن للمؤرخ النزيه إلا أن يعترف أنه كان فتحاً إنسانياً وشعبياً لم يحدث مثله من قبل أو بعد،

وتجربة ثمينة فى تاريخ البشرية بأسرها.. ودليلاً لا يدحض ولا يقاوم على قوة العقيدة والإيمان والمثل الأعلى ففى أى تاريخ يمكن أن نجد مثيلاً لهذه الجيوش التى خرجت بأسلحة ساذجة، ودون أى تدريب عسكرى سابق، لتكتسح الجيوش المدربة، والقيادات المحترفة، والإمبراطوريات العريقة.. فى أى تاريخ نجد مثيلاً لهؤلاء الجنود الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ولا يعادل شجاعة نفوسهم إلا عفة سيوفهم، ويحملون الكتاب والميزان ويقيمون الصلاة. أين من هؤلاء الجيوش الرومانية التى كان يسير فى أعقابها.. البغايا، وتجار الرقيق، وتحارب بفكرة استباحة المدن، وانتهاك الأعراض والسيطرة والحكم.. أين الفتح الإسلامى الرحيم من الاكتساح الرومانى الغشيم الذى كان دأب العالم وقتئذ وأورثته روما القديمة أوربا الحديثة.

كان الفتح الإسلامى حياة وعدالة ونوراً وعهداً جديداً للشعوب والجماهير، المستعبدة، كان أشبه بدفعه قوية من القيم والمعنويات و "الهرمونات" تدفقت فى عروق هذه الجماهير، فأحيتها، وأحيت معها سوريا، والعراق ومصر بعد أن كان الاستبداد الرومانى قد أماتها، وأعطتها فرصتها لتكون قوى مؤثرة فى تاريخ البشرية.

لقد كان من الممكن أن يتكرر هذا بالنسبة للشعوب الأوروبية، وكان من الممكن أن ينتشر نور الإسلام ويبدد

ظلمات الجهالة الأوروبية لو لم ينحسر الفتح الإسلامى عند "بواتيه" الأمر الذى جعل المؤرخ البريطانى الأشهر "جيبون" يرى فى هذا الانتحسار، وانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقى كارثة أصابت أوروبا.. وأخرت تقدمها.

مع هذا - أو بمعنى أصح لهذا - فنحن نقول إن تجربة الفتوح الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين كانت تجربة فريدة، شأنها شأن "دولة المدينة" لا يمكن أن تتكرر ولا يمكن القياس عليها. وقد كانت هزيمة الجيش الإسلامى عند بواتيه دليلاً على أن التجربة فقدت جدتها ومبرراتها لأن الهزيمة جاءت لحرص البربر الذين كانوا أغلبية الجيش على الغنائم التى أقتلوا أنفسهم بها طوال فتحهم، فدل ذلك على أنهم فقدوا طبيعة الجنود الإسلاميين الذين "يعفون عند المغنم" وأنهم أصبحوا جيوشاً عادية كبقية الجيوش التى تحارب عصبية وطاعة، أو احترافاً واغتناماً الخ...

ولم يعد هذا الأسلوب - أسلوب الحرب فى سبيل مثل أعلاً - متاحاً الآن لأن هناك بدائل عديدة للتعريف بالمثل الأعلى لم تكن متاحة فى العهد القديم كالصحافة والإذاعة والقنوات التليفزيونية المفتوحة على العالم أجمع. ولأن تجربة التاريخ أثبتت أنه ليس المهم الفتح العسكرى بالجيوش ولكن غرس القيم الإسلامية. ولو أن المسلمين عندما فتحوا أسبانيا وفتحوا الهند مارسوا أساليب الإسلام

الحقه فى الحكم، أو حتى بذلوا جهداً حقيقياً لغرس الإسلام نفسه فى هذه البلاد لكانت شبه القارة الهندية أمة إسلامية ولكانت أسبانيا دولة إسلامية، ولكن الملوك والأباطرة والقادة فى الهند - أباطرة المغول عكفوا على اللذات والشهوات وأنفقوا أموال الشعب على قصورهم الخ... كما شغل المسلمون فى أسبانيا بحرب بعضهم بعض، وقل مثل ذلك سلاطين الترك وممالك مصر والكياسره الصفويين الذين جعلوا شغلهم حرب بعضهم بعضاً، وكلهم مسلمون وحكموا البلاد فأكثرُوا فيها الفساد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِغُ صَادٍ﴾. {١٤ الفجر}.

أضاع الحكام المسلمون بابتعادهم عن مثل الإسلام الهند وأسبانيا. وكان نهر الفولجا فى أعماق روسيا يوماً ما نهراً إسلامياً، كما كان اللوار فى عمق فرنسا كذلك. ولكن المسلمين أضاعوا هذا كله. فلنأمل أن يتعلموا الدرس حتى لا تتكرر فى المستقبل تلك الأخطاء الفاحشة التى أودت بالماضى، لأنه وإن كان المسلمون قد خسروا القوة العسكرية، فلا يزال لديهم القرآن ولو بشروا به (وليس بكلام فقهاءهم) لفتحوا به ما خسروه بالسيوف. فليس المهم الفتح، ولكن الفهم...

## الفصل السابع

### الحلم المستحيل

الجهاد لإنقاذ البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الله

تحدث الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله عن مقاصد القتال في الإسلام فأجملها في:

١. رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين.

٢. تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم

٣. حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعاً ويتحدد موقفهم منها.

٤. تأديب ناكثي العهد.

٥. إغاثة المظلومين من المؤمنين<sup>(١٢)</sup>.

وقد أورد الإمام الشهيد هذا في كتاباته الأخيرة التي كان يحررها في مجلة الشهاب سنتي ٤٧ و ٤٨ أي أنها تمثل

---

(١) جاء ذلك في مقال بمجلة الشهاب العدد الرابع والخامس فبراير - مارس سنة ١٩٤٨ ويمكن الرجوع إليها في رسالة السلام في الإسلام وبحوث أخرى. التي أجملنا فيها كتابات الإمام الشهيد في مجلة الشهاب ونشرناها تحت هذا الاسم. وقد أعيد نشرها بعد ذلك متفرقة.

آخر الأقوال لديه حتى وإن لاحظنا أنها عاصرت الأيام العصبية، أيام جهاد متطوعى الإخوان المسلمين فى فلسطين.

ولكن التطورات السياسية المأساوية والعنيفة خاصة حرب عبد الناصر على الإخوان المسلمين، ومأساة التعذيب أدت إلى ظهور رأى آخر فى الجهاد، كجزء من نظرية فى الدعوة الإسلامية أمن بها الذين اصطلوا بنار هذه العداوات وتعرضوا للتعذيب، وكانت هذه النظرية تتفق مع الظروف الشاذة التى مرت بها الدعوة الإسلامية من ناحية. وتخبط التجربة الناصرية المشؤمة من ناحية أخرى ووجدت داعيتها فى الكاتب الموهوب الأستاذ سيد قطب الذى صاغها فى كتاب "معالم على الطريق" فى سطور ملتبهة تتضح بالإيمان وبكل ما يوجده الإيمان من تأكيد وثقة<sup>(١٣)</sup>.

ولم تنتبه السلطات المسئولة لخطورة "معالم الطريق" ولهذا نشر الكتاب أكثر من مرة ووجد فرصته كاملة لكى يستوعبه فريق من الشباب المؤمن، خاصة ممن كان فى الإخوان المسلمين ثم ضاق بما اعتبروه سلبية أو استخذاءً أمام الطغيان الناصرى وشيئاً فشيئاً ظهرت دعوة يكون الجهاد فيها هو قطب الرجا، سواء كان على الصعيد الداخلى، أو على الدولى.. وفى الحقيقة فإن ما يميز هذه

---

(١) لقد شرحنا ملابس ذلك بإفاضة فى كتابنا "رسالة إلى الدعوات المعاصرة" دار الفكر الإسلامى الصفحات ٩٩ - ١٠٦.

الدعوة ويعطيها طابعها العام والأممى هى أن هدفها الأسمى هو تخليص البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الله.

ويعرف المؤرخون أن كلمة تخلص الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله إنما جاءت أول مرة على لسان ربيعى بن عامر القائد العربى فى لقائه مع القائد الفارسى رستم قبيل القادسية ومن ثم استحوذت عليها الدعوة الجديدة وجعلتها مماثلة لكلمتها الأخرى "الحاكمية الإلهية" التى كان أول من قال بها فى التاريخ الإسلامى هم الخوارج وجابها بها عليا بن أبى طالب..

بعث هؤلاء الدعاة الجدد من التاريخ الإسلامى هذه الشواهد دون أن يدرسوا معانيها، والملابسات التى أعلنت فيها والنهاية التى أنتهى إليها الأخذ بها.

وحمل سيد قطب رحمه الله وعفا عنه، على الذين يذهبون إلى أن الجهاد فى الإسلام له طابع دفاعى وأطلق عليهم "المهزومين" وذهب إلى أنهم فى اتجاههم هذا يسايرون المستشرقين الذين يكيدون للإسلام.

وأخص انتقاداته لهؤلاء "المهزومين أنهم بألفاظه". يخلطون ما بين منهج الإسلام فى استتكار الإكراه فى الدين ومنهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحول بين الناس وبينه، والتى تعبد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله.. وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما..

ومن أجل هذا التخليط، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! - يحاولون أن يحصروا الجهاد فيما يسمونه اليوم: "الحرب الدفاعية" .. والجهاد فى الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها، ولا تكييفها كذلك.. إن بواعث الجهاد فى الإسلام ينبغى تلمسها فى طبيعة "الإسلام" ذاته ودوره فى هذه الأرض، وأهدافه العليا التى قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات.

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" فى "الأرض" من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضا وهى من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه - وربوبيته للعالمين. إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وإشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور.. أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر فى صورة من الصور.. ذلك أن الحكم الذى مرد الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب وردة إلى الله، وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم،

فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مكان العبيد..  
 إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فى الأرض،  
 أو بالتعبير القرآنى الكريم:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾.
- ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.
- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

وقيام مملكة الله فى الأرض، وإزالة مملكة البشر،  
 وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من العباد ورده إلى الله  
 وحده.. وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين  
 البشرية.. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لأن  
 المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله فى  
 الأرض، لا يسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا  
 فما كان أيسر عمل الرسل فى إقرار دين الله على الأرض!

وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال] انتهى<sup>(١٤)</sup>.

الجهاد هنا فى رأى سيد قطب رحمه الله هو الوسيلة فى يد المسلمين ليدافعوا عن حق الله الذى اغتصبته النظم وحق العباد الذى حرموا من عبودية الله وأجبروا على عبودية البشر. وهذا فيما يرى لا يدخل فيه إكراه!

هذا خيال طامح، بل هو حلم فيه ما فى أضغاث الأحلام من هذيان وخط وشدوذ واستحالات.. ولقد كان ممكنا من أكثر من ألف عام عندما كانت الحدود بين الدول مغلقة، والأمية سائدة ولا توجد أجهزة ووسائل إعلام وعندما كانت النظم طبقية بالفعل تستغل الجماهير، نقول لقد جوزنا الفتوح الإسلامية فى هذه الظروف بالذات ومع هنا فإنها بعد نجاحها فى صدر الإسلام وتحول الخلافة إلى ملك عضوض فقدت الفتوح الإسلامية معظم عناصر الإيمان التى قامت عليها، أما الآن فإن أى فرد فى أى دولة يريد أن يعتنق الإسلام فإن دولته لا تتدخل، وهذا جوهر الحرية ويدخل المئات من الأوربيين والأمريكيين الإسلام دون حاجة إلى جيش الجهاد الإسلامى. والنظم التى ينعتها الشهيد سيد قطب بألفاظ الكفر والاستبداد الخ... أقرب إلى روح الإسلام

---

(١) معالم فى الطريق - سيد قطب ص ٥٩ - ٦٠ طبعة الاتحاد العالمى للمنظمات الطلابية سنة ١٩٧٨ م.

وحرريته وسماحته من الدول الإسلامية، ومما يدعو إليه هو وليس إلا إكراهها مقيتا في مجال الدين الذي قال الله تعالى عنه "لا إكراه في الدين"، وما أشبهه وهو يرفع دعوة الحاكمية الإلهية بأعراب تميم الجفاه الذين لا يعقلون شيئاً ولا يعلمون ويتصايحون "الحكم لله!" وكانت نتيجة صيحتهم المشؤمة تلك قتل على بن أبي طالب وإنهاء الخلافة وبدء المُلْك العضوض. ومع هذا يرى شاعرهم المغفل أن قاتل على بن أبي طالب "أوفى البرية عند الله ميزاناً!!".

ظهرت ناشئة جديدة جعلتها ظروفها مهينة لتقبل فكر سيد قطب رحمه الله. وأخذوا في تكوين هيئات عديدة تحت أسماء مختلفة أبرزها الجماعة الإسلامية والجهاد تنفق على اختلافها في الإيمان بالفكرة التي عرضها الشهيد سيد قطب عن الجهاد..

وقد نشرت الجماعة الإسلامية ميثاق العمل الإسلامي وحمل أسماء عاصم عبد الماجد، وعصام الدين درباله، وناجح إبراهيم عبد الله. وهو كالاتي:

**[ غايتنا: رضا الله تعالى بتجريد الإخلاص له سبحانه وتحقيق المتابعة لنبية صلى الله عليه وسلم.**

**عقيدتنا: عقيدة السلف الصالح جملة وتفصيلاً.**

**فهمنا:** نفهم الإسلام بشموله كما فهمه علماء الأمة  
الثقات المتبعون لسنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين  
المهديين رضى الله عنهم.

### **هدفنا:**

\* تعبيد الناس لربهم.

\* إقامة خلافة على نهج النبوة.

**طريقنا:** الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر  
والجهاد فى سبيل الله من خلال جماعة منضبطة حركتها  
بالشرع الحنيف تأبى المداهنة أو الركون وتستوعب ما سبقها  
من تجارب.

**زادنا:** تقوى وعلم.. يقين وتوكل.. شكر وصبر.. زهد  
فى الدنيا وإيثار للأخرة.

**ولاؤنا:** لله ولرسوله وللمؤمنين.

**عداؤنا:** للظالمين.

**اجتماعنا:** لغاية واحدة.. بعقيدة واحدة.. تحت راية  
وحدة فكرية واحدة [ انتهى..

إننا نجد دعوة جادة مخلصه حافلة بالمعاني النبيلة  
المؤثرة وتتمحور حول أن تكون للحياة غاية ومغزى وترتبط  
بالإسلام ولها طابع أخلاقى ملتزم. وهى مثل كل دعوة

إسلامية تستلهم الإسلام وتجعل ولاءها لله ولرسوله  
وللمؤمنين وعداءها للظالمين..

مثل هذه الرسالة فى الحقبة التى سادت فيها  
الانهزامية، والانتهازية وسقطت الفنون والآداب وأصبح  
المسرح كباريه وشجعت الدولة الإسفاف والشهوات لتشغل  
الناس وارتفعت الدعايات اليسارية بعد أن شغل اليساريون  
منابر الإعلام. فى هذا الجو الوبيل تبدو رسالة "الجماعة  
الإسلامية" مرفأً سلام وأمان لسفينة الشباب الضائع، التائه  
المتخبط بين الأمواج.

### ولكن وآسفاه...

إن فهم الجماعة الإسلامية لمضمون الجهاد يطمس  
الكلمات البريئة التى أجملت فيها عقيدتها وغايتها، بل إن هذا  
المضمون يسخر عقيدتها وفكرتها الخ... لفكره مسيطرة،  
مستحوزه، متحكمة تؤدى إلى طاغوت وكابوس وتحسب أنها  
تحقق تحريراً وإنقاذاً وتقذف بالناس إلى الظلمات بدلاً من أن  
تتقدهم منها.

لقد جعلت الجماعة الإسلامية الآية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا  
تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.. شعاراً لها وقد شرحنا هذه  
الآية مراراً وتكراراً عندما عرضنا لها فى باب آيات القتال  
فى القرآن الكريم من هذه الرسالة.

ولكن الجماعة الإسلامية فهمت شيئاً آخر لأن الجماعة ترى أن الإسلام بألفاظها [جاء ليدخل الخلق كلهم في دين الله تعالى وشرعه ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾].

وجاء أيضاً ليمحو الشرك في كل صورته من فوق ظهر الأرض "حتى يعبد الله وحده لا شريك له" كما قال صلى الله عليه وسلم..

نعم كان القتال دعوة للتوحيد بنص حديث رسول الله ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

كان القتال دعوة للتوحيد لأن الإمبراطوريات والممالك أبت بسلطانها ونفوذها أن تسمح لدعوة التوحيد ودعائه بالإنفاذ إلى أرض الله وخلق الله بحجة أن هذه أرضها هي، وهؤلاء رعاياها.. فكان لابد من القتال.

وكان القتال سحفاً للشرك بإزالة هذه الطواغيت التي علت تلك المجتمعات حاكمة أمرة ناهية، تشرع للناس وتحمل الناس على التحاكم لشرعتها وتجبرهم على الخضوع لها.. رغبة ورهبة..

كان لابد من القتال لإزالة كل سلطان يعبد من دون الله.. لإزالة كل سلطان يقف في وجه دعوة الإسلام.. لإزالة

كل سلطان يأبى أن يدخل فى دين الله ويستكبر ويرفض أن  
يذعن ويدفع الجزية، ويصر على أن يعلو ويهيمن.

كان لابد من القتال لإزالة الفتنة.. وسحق الشرك..  
وإعلاء شرع الله ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ  
لِلَّهِ﴾..

إن أحد لم يخلق من دون الله.. وإن أحداً لم يخلق مع  
الله.. لذا فإنه ليس من حق أحد أن يشرع من دون الله..  
وليس من حق أحد أن يشرع مع الله. قال ابن تيميه "ليس  
لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله، لا بين المسلمين، ولا  
الكفار.. إلا بحكم الله ورسوله"..

إن الناس لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا الأرض التى  
عليها يحيون وعليها تقوم مجتمعاتهم، لذا فإنه ليس من حقهم  
أن يهيمنوا أو يهيمن بعضهم ليشرع ويحكم ويأمر وينهى من  
دون الله..

إننا كمسلمين - مأمورون أن لا ندع أى طائفة على  
وجه الأرض تحكم الناس بغير شرع الله..  
فمن أبى ذلك ورفض الإذعان قاتلناه..

يقولون: هذه وصاية منكم على البشرية!!.. نقول:  
هذه وصاية شرع الله ودينه على أرض الله وخلقته، نحن

مأمورون بتحقيقها لصالح البشرية بوصفنا خير أمة أخرجت للناس.

إن الإسلام ليس مجرد عقيدة فى القلب فقط حتى نقنع بحكايتها باللسان والدفاع عنها بالقلم والبرهان ثم نمضى قائلين: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. لا هذا فهم أعوج مبتور.. إن الإسلام منهج حياة، إنه شرع الله الذى جاء ليسير حياة الخلق.. لذا فنحن لا نكتفى بخطبة أو موعظة نقول فيها "عقيدتنا" وندافع عنها وكفى.. كما أنا لا نقنع بحلقة علم نعلم فيها أو نتعلم بعض المناسك والشعائر وكفى.. بل لا بد وأن ننطلق بهذا الدين دعوة باللسان، وحجة بالبيان، ودعوة بالحسنى، وجهاداً بالسيف.. أما اللسان والبيان والحسنى فللقلوب والعقول، فإن آمنت فيها ونعمت، وإن أبت فالجزية والصغار وعلو أحكام الإسلام على الديار، فإن امتنعت واستكبرت وعاندت ولم تسلم لنا القياد فالسيف السيف.. حتى تنزاح هذه الطواغيت، وبعد ذلك نقول ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [ انتهى.

\* \* \*

بعد ثلاثين عاماً من الاحتباس فى السجون، والعذاب، وبعد أن استشرت أفعال فريق من الجماعات الإسلامية وذهب بها التطرف كل مذهب وأسفرت أعمالهم عن شر النتائج، وبعد أن قتلوا السادات وهو الذى أعلن حرب أكتوبر

تحت لواء "الله أكبر" وأغلق المعتقلات وصفى الحراسات وحاول أن يقضى على رواسب الناصرية المقيتة...

بعد أن تخطبوا ثلاثين سنة، وأخذوا المجتمع المصرى فى ذيل تخطباتهم تبينوا أنهم كانوا فى ضلال عميق..

### وجاءت مبادرة ترك العنف..

[فى الخامس من يوليو سنة ١٩٩٧ وأثناء نظر القضية العسكرية ٢٣٥ فوجئ الحاضرون بأحد الإخوة المتهمين فى هذه القضية وهو يقف فى مواجهة رجال الإعلام ليلقى بيانا مديلاً بتوقيع القادة التاريخيين للجماعة الإسلامية يدعو الإخوة لإيقاف العمليات القتالية وحقن الدماء.

كانت هذه المفاجأة - كما يقال - كمن ألقى حجراً فى ماء راكد سرعان ما تتابعت تداعياته.. حيث سارع البعض لينكر ويشكك ويتهم.. ووقف البعض الآخر يرقب عن كثب ما تسفر عنه الأيام محجماً أن يبدي رأياً بتأييد أو معارضة.. بينما سارع الأكثرون يؤيدون وبياركون ويشجعون لعل هذه المبادرة الشجاعة تكون مدخلاً لانتشال البلاد من حمام الدم الذى عانت منه لسنوات مضت.

ورغم أن هذه المبادرة كانت من طرف واحد ولم تبد أجهزة الدولة أى تجاوب معها إلا أنها أشاعت جواً من

التفاؤل بإنهاء تلك الأزمة، وتوقع الكثيرون أن يتجاوب معها الجميع مستقبلاً.

وقد زاد من هذا الإحساس بالتفاؤل أن بادر شيخنا الدكتور عمر عبد الرحمن من محبسه في أمريكا - فك الله أسرهم - ليدعم هذا التوجه ويدعو الإخوة جميعاً للتجاوب معه.

أما إخواننا في الخارج فقد أعلنوا عدم استجابتهم لهذه المبادرة مشككين في صحة نسبتها إلينا.. وكانت صعوبة الاتصال بهم من سجننا حائلاً أعاقنا كثيراً عن شرح وجهه نظرنا في هذا الأمر وإن كنا في ذلك الوقت على ثقة بأن الأمر سوف ينتهي باستجابتهم في آخر الأمر.

وفي غمرة سعينا في البحث عن سبيل لشرح وجهة نظرنا لإخواننا مع تتابع تداعيات هذه المبادرة على الرأي العام وأجهزة الدولة فوجئنا بحادث الأقصر.

وكانت صدمة لنا جميعاً.. إذ كان الحادث بما فيه من اعتداء على النساء والأطفال والتمثيل بهم غريباً على منهجنا وتفكيرنا وكان صدى هذا الحادث متفاوتاً.

فقد أعلننا تمسكنا بمبادرتنا رغم تسرب شيء من الإحباط إلى نفوسنا.. في الوقت الذي أحدث صداه في نفوس إخواننا بالخارج وبدأ تأييدهم فرادى يتوالى حتى أعلنوا

بجملتهم بيانهم فى ٢٨ مارس سنة ١٩٩٩ بالتأييد الكامل ووقف كل العمليات تماماً والبيانات المحرصة عليها.

وهكذا تحولت المبادرة إلى رأس جسر يحتشد من خلفه كل أبناء الجماعة، وكلهم أمل فى أن ينفصوا عن أكتافهم أثر تلك الأيام العصبية ليعودوا إلى مهمتهم الأصلية كدعاة إلى الله يشاركون فى هداية الخلائق إلى طريق الله القويم. وهما هى سنوات أربع تمر على المبادرة ولا زلنا نشعر بالراحة ونحن نرى شجرة مبادرتنا تتنامى على مهل<sup>(١٥)</sup>. [ انتهى..

إن هذه المبادرة التى فيما نرى لم تظهر نتيجة استسلام للعذاب أو اتفاق مع السلطات. وإنما ظهرت لأنه استبان لهؤلاء الدعاة خطأ ما ذهبوا إليه أولاً بعد أن درسوا دراسة متأنية الاجتهادات الشرعية فى مجال الجهاد، والثورة، والعنف، وانتهوا من منطق شرعى، وبحكم الأدلة. إلى أن الجهاد وسيلة وليس غاية وأن الغاية هى هداية الناس إلى الحق" وأن هذا لا يتم بالجهاد ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) كتاب مبادرة وقف العنف - رؤية واقعية ونظرة شرعية تأليف إسامة إبراهيم حافظ، عاصم عبد الماجد، وأقره وراجعة كرم محمد زهدى، وعلى محمد الشريف، وناجح إبراهيم عبد الله ومحمد عصام درباله، وفؤاد محمود الدواليبى وحمدي عبد الرحمن عبد العظيم.

ولا جدال أنهم أصابوا هذه المرة بعد أن أخطأوا فى  
المرة الأولى. ولكننا نلاحظ أنهم قصرُوا فكرهم فى الحاليين -  
فى البداية وفى النهاية - على فهم فقهاء ومفسرين للآيات  
والأحاديث وليست هذه هى الطريقة المثلى لأنها وإن سمحت  
لهم بالتصحيح، فإنها لا تنفى وجود جهات نظر لفقهاء  
آخرين، بل ولنفس الفقهاء الذين اعتمدوا عليهم وهذا ما يمكن  
أن يضل جماعات جديدة، وكان يجب أن يحكموا العقل  
والمنطق وطبائع الأمور وما يوحى به القرآن - كل القرآن -  
- وما أخذ به الرسول بالفعل إن هذا وحده هو الذى يعصمهم  
من أن يقعوا فى أخطاء جديدة. إن فقه السلف الصالح لا  
يمكن أن يحسم الموضوع فقد ينقذهم فى ناحية ويوقعهم من  
ناحية أخرى.

وليس هذا مجرد نقد لموقف الجماعة الإسلامية أنه  
تصحيح المفاهيم. إن الذين أرادوا استتقاذ البشرية من جاهلية  
تعبيد العباد للعباد إلى تعبيدهم لله، وآمنوا بضرورة إعلان  
الجهاد على كل النظم الأخرى اخطأوا خطأ جذريا أساسياً.  
فى الوسيلة وفى الغاية فإنهم اعتبروا الجهاد، والقوة والسلاح  
هى وسيلة تدمير النظم الحاكمة التى رأوا أنها تحول دون أن  
تكون كلمة الله هى العليا فى حين أن القرآن الكريم استبعد  
القوة نهائياً من مجال الهداية. ولم يستخدم السيف إلا درءاً أو  
حماية لعرض أو ملك، أو عقيدة وقد أرسل الرسول ﷺ إلى

الملوك خطابات يدعوهم، ولم يرسل إليهم جيوشاً تحاربهم، والفتوح الإسلامية هي ظاهرة تاريخية وليست أصلاً عقدياً، شأنها في ذلك شأن "دولة المدينة" التي كانت بدورها ثمرة لتطورات عملية وواقعية ولم تكن تحقيقاً لمقتضيات العقيدة ولكن نتيجة لتطورات تاريخية أدت لظهورها وقد قلنا في إحدى المناسبات إن دولة المدينة تجربة فريدة لا تتكرر ومن هنا يكون القياس عليها خطأ، وهذا ما يمكن أن يقال على الفتوحات الإسلامية في الصدر الأول للإسلام.

وقد تحدثنا عن الفتوحات الإسلامية من قبل. لهذا فإن إقحام السيف في مجال الهداية خطأ وانحراف عما أراده الله و عما مارسه الرسول.

وأما في الغاية فإنهم أرادوا حمل "البشرية قاطبة على الهداية" وفيهم هم من هذا ولو أراد الله تعالى هذا لغير في السنن والمبادئ التي يقوم عليها المجتمع الإنساني بحيث يمكن تحقيق هذا. ولكنه تعالى أراد هذا الاختلاف أراد هذه التعددية. ولأم الرسول لحزنه وبخعه لنفسه أن لم يؤمن به المشركون، وقال له بصريح العبارة.. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. {٣٥ الأنعام}..

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. {البقرة ١٣٤}..

﴿فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. {البقرة ١٣٧}..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. {المائدة ١٠٥}..

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. {يونس ٩٩}..

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. {الكافرون ٦}..

فهذه آيات صادعة في أن الله تعالى أراد التعددية، وأراد أن يوجد الاختلاف، وأن ليس على المؤمنين هداية هؤلاء ولا يضر المؤمنين من ضل إذا اهتدوا. وهناك لوم وتقريع لمن يريد أن يجعل الناس كلهم مؤمنين، ولو شاء الله لجعل الناس أمه واحدة الخ...

في ضوء هذه الآيات الصريحة القوية الصادعة يكون الجهاد "لإنقاذ البشرية من تعبيد العباد إلى تعبيدها الله" افتتاحاً

على المشيئة الإلهية وإِعلاء لفهمهم الخاص عليها. ويغلب دائماً أن يكمن في أعماق من ينادون بمثل هذه الخطوة عرق ينزغ للسلطة والديكتاتورية وإِعلاء الذات وهو الشر المستطير الذي أوتيت منه النظم السياسية فى المجتمعات الإسلامية..

ومن ناحية مقابلة فإن الله تعالى يوصينا أن نتعامل مع كل الذين آمنوا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. {٦٩ المائدة}

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. {١٧ الحج}..

لقد جمعت هذه الآية كل شرعه مما قد يراها من لا يؤمن بها ضالة، أو نحلة كافرة، وتركت أمرها لله..

﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. {٨ الممتحنة}..

والأتكى والأسوأ أن كل هذه الحماسة والإيمان والتأكد يدور حول تعبير بقدر ما يبدو صحيحاً فى ظاهرة بقدر ما

يكون خطيراً وهداماً إذا أريد تحقيقه بغير ما رسمه الله وطبقه الرسول.

إن هذه المأساة ليست جديدة على التاريخ الإسلامى لقد كان هي الأولى التى فتحت باب الفتن والضلال وأدت إلى الحروب وسفك الدماء وأودت بعهد الإمام على وجاءت بمُلك بمعاوية

وقد تملك الغضب الإمام على، وهو يسمع تصايح هؤلاء الأعراب الجفاة لا حكم إلا لله.. بعد أن جازت عليهم خدعة المصاحف على أسنة الرماح.. فأمر بدعوة الصحابة وجاء بمصحف إمام كبير وجعل يخطب عليه ويقول يا مصحف حدثهم.. ليوضح لهم حماقة هؤلاء الأغبياء. فإن القرآن الكريم لن يتحدث ولن ينطق، وأن الله تعالى لن ينزل ملائكة يحكمون. وإنما سيتولى الأمر هؤلاء الحمقى وليس لديهم أى فهم أو فكر، ولا فى حديثهم إشارة إلى عقل أو إلى عدل أو مصلحة. فبماذا يحكم هؤلاء إلا بالجهالة وإلى أى شىء تؤدى الجهالة إلا إلى الفشل.

إلى هذا الجحيم كان دعاة الحاكمية يسوقون الجماهير ويتصورون أنه بقدر ما يشتد الصراخ والصياح وتتعالى الأصوات والهتافات بقدر ما يكونون أدنى إلى تحقيق الآمال.

الخوف كل الخوف إن لا يكون دعاة الحاكمية الإلهية استبنانوا تماماً مدى الغفلة والحماقة والاستغلال للشعارات،

فيما ذهبوا إليه لأن تجربة التاريخ توضح لنا إن الأمم فى  
ساعات محنتها تمر بها مثل هذه النوبات من الجنون. حتى  
وإن انقشعت بعد حين أهدرت خلاله الوقت والجهد والدم  
والمال...

## خاتمة

الجهاد الإسلامي المطلوب اليوم الجهاد ضد التخلف

جهاد "الحياة في سبيل الله"

قد يكون من حق الشاعر جميل بثينة أن يقول:

يقولون جاهد يا جميل بغزوة

وأى جهاد غيرهن أريد

كما قد يكون من حق جماعة الجهاد أن ترى أن الجهاد على طريقة غزوات الرسول هو "الفريضة الغائبة" ..

من حق هؤلاء وأولئك، ومن حق غيرهم أيضاً أن يقولوا ما يشاءوا. ولكن هذا لا يغير الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً على الجميع. تلك هي أن العالم الإسلامي بأسره اليوم هو في الدرك الأدنى بموازين القوة: قوة البأس العسكرية: قوة المال الاقتصادية. قوة المؤسسات الراسخة والنظم المستقرة. وان أهله أصبحوا قطيعاً من الجياع العراة.. الذين غلبت عليهم الذلة والمسكنة وتحكمت فيهم عصابات من الحكام الطغاة. وأن الشعوب لا تملك ثقافة، ولا

حرية، ولا تنظيماً تمكنها من العمل. وأصبحت تتخبط فى المتاهات دون أن تصل إلى حلول..

هذه هى الحقيقة المفجعة، فإذا كان هناك حديث عن جهاد فأولى ثم أولى أن يكون جهاداً فى مواجهة هذا الواقع المزرى وهذه الحال التى هى أبعد ما يكون عما أراده الله تعالى عندما قال والله العزة لرسوله والمؤمنين

فإن المؤمنين لم يعد لهم أى نوع من العزة. وإنما أصبحوا يتخبطون ما بين الأغلال المفروضة لا يهربون من غل إلا ليقعوا فى غل آخر. ولا ينجون من قيد إلا ليلحقهم قيد ثان.

العالم الإسلامى يتخبط ما بين حكام استبدت بهم شهوة السلطة وارتبطوا باتفاقيات ومعاهدات مع الدول الكبرى التى ترسم لهم سياساتهم ويتلقون لقاء ذلك المناصرة والتأييد من هذه القوى والسكوت عما يقترفونه من مظالم وموبقات..

وترسم هذه القوى للعالم الإسلامى طريقاً تدعى أنه ينهض بشعوبها، ولكنه فى الحقيقة يربط هذه الشعوب بإسار التبعية للدول الكبرى بحيث يكونون مواطنين درجة ثانية أو ثالثة يمارسون الأعمال اليدوية التى لا تتطلب ذكاءً ويتأثرون بأسوء مكونات الثقافة الحديثة التى تجعلهم أسرى الاستهلاك والعاجزين فى الوقت نفسه عن الإنتاج. ثم لا تكفى هذه الدول بذلك، بل تقيد العالم الإسلامى بقروض ربوية تجعله

يعجز عن سداد الدين الذى يتضخم، وبالكاد يدفع فوائده. ويرتهن اقتصاد البلاد وزبدة الإنتاج لتسديد هذه الفوائد. وقد يقدمون "معونات" والحقيقة أنها معونات لهم وليس للعالم الإسلامى لأن كل معونة تصطحب بشروط وقيود وإجراءات و ضمانات وعدد من المستشارين الأجانب أو تشتترط سلعاً معينة قد تكون راکدة فى دولتها وترید التخلص منها، وتشتترط أن تتم عمليات التبادل الصناعى والتجارى على سفنها أو بطرقها. وفى النهاية فإن نتيجة المعونة توظيف عدد من الأجانب، ورشوة عدد من المسئولين والتخلص من بعض سلعها الراکدة وتشغيل سفنها ونظمها الخ... فهى كسب للدولة "المانحة" على حساب الدول المتلقية !.

و داخل كل دولة، فى وزارتها، خبراء وموظفون يعكفون على إتمام هذه الخطط ويضعون ترتيباتها ويكتبون التقارير ويعتمدون على أرقام وإحصائيات مزيفة أو توقعات خيالية.. وعندما تكذبهم الوقائع فإنهم يتمحكون وأن كانوا فى النهاية يعمدون إلى المزيد من القروض ويبخسون عملتهم حتى لا تساوى شيئاً أمام الدولار.

وهؤلاء هم خبراء التنمية وأساتذة الاقتصاد، وقد حكم عليهم الوضع بهذا الموقف، وأصبحوا أدوات له. وهم يصدرن التقرير تلو التقرير، ويعتمدون على نسيان

الشعوب، وتصديفها ورضوخها وانصياعها فى النهاية لأنها لا تستطيع العمل، ولا تهتدى للحل.

وبفضل هذا يعيش الحكام فى قصورهم، ويعيش "التكنوقراط" فى فيلاتهم. ويكسب المستوردون والتجار الملايين وتنحط يوماً بعد يوم مستوى المعيشة بصورة تدريجية تصبح مفزعة فى النهاية، وأن لم تظهر كذلك فى البداية..

إن هذه الوسائل التى تعتمد على سياسات الحكام وعلى تقارير الفنيين والاقتصاديين ومن ورائهم التجار الجشعون والرأسمالية الطفيلية، وسياسات صندوق النقد الدولى.. وفتح الأبواب للسلع المستوردة التى تودى بكل صناعة وزراعة لا يمكن أبداً أبداً أن تحقق نهضة ولا أن تحفظ لشعب كرامته وعزته واستقلاله..

لا يمكن الإنقاذ إلا عندما تعتبر الجماهير عملية التنمية، عمليتها وتأخذها من أيدى الخبراء والتكنوقراط. وهذا لا يتحقق إلا بإيمان عظيم بأن هذا هو الجهاد الحق الذى أراده الإسلام وعندئذ تتحول التنمية إلى معركة حضارية، شعبية، إسلامية تؤدى تحت لواء الجهاد المقدس. تبدأ من نقطة العدالة التى لا تتطلب إلا الإجراءات الإدارية لتحقيق التقارب فى الدخول والثروات حتى تصل إلى مرحلة

الكفاية التى تنهض بالإنتاج بحيث يتيح مستوى المعيشة  
المطلوب لكل الشعب..

إن إرادة الشعوب وحدها هى التى يمكن أن تصمد،  
وأن تنتصر، على هذا الطوفان، عندما تنتظم وتعبئ نفسها  
فى جهاد مقدس وتحت راية قيمة عظمى كالإسلام.

أن هذا الجهاد هو وحده الذى يستطيع أن ينهض من  
الحاضر المتردى المعقد، ويجابه التحدى الكاسح للعلومة.

أن الجهاد اليوم ليس هو أن نموت فى سبيل الله. ولكن  
أن نحيا فى سبيل الله.

كان الجهاد الإسلامى الأول فى عهد الرسول والخلفاء  
الراشدين موجهاً "ضد الكسروية والقيصرية والنظم الطبقية  
التى استعبدت الجماهير. وكان الجهاد فى القرن الماضى  
لاستعادة الحرية السياسية والقضاء على الاستعمار البغيض،  
واليوم فإن الجهاد هو سبيل تحرير البلاد والشعوب من قبضة  
التبعية الاقتصادية، والتخلف ومواجهة العولمة...

كان شعار الجهاد قديماً "من يبايعنى على الموت فى  
سبيل الله" واليوم فإن شعار الجهاد "من يبايعنى للحياة فى  
سبيل الله" ..